

بلاد الشيشان

جمع وترتيب
إياد القيسي
عماد محمد البغدادي

”نظراً لما يتعرض له هذا الشعب المسلم من
اضطهاد وتثريد من قبل الروس، آثرنا كتابة
هذا الموضوع تعريفاً للأمة الإسلامية بهذا
الشعب المجاهد“

قال رسول الله ﷺ: (مثلُ المؤمنِ في توادهم
وإِرحامهم وتعاطفهم مثلُ الجسدِ إذا اشتكى منه
عضو تداعى له سائرُ الجسدِ بالسَّهرِ والحمى).
متفق عليه

تمهيد

هذا الإقليم الجميل الذي عرف بأنه مصدر الجنس الأبيض ، ومهد الجمال
البشري الأمل ، والذي عاشت فيه جماعات بشرية ، وقامت فيه حكومات منذ
زمن بعيد ، يضيع مبتداه في ظلمات العصور القديمة التي تقدمت الأزمنة
التاريخية وسيطرت على العالمين وغذتهم بمبادئ الرقي والتمدن .

هذا الإقليم العظيم لم يعن أحد - للأسف - بتدوين تاريخه المجيد ، كما

ينبغي ؛ خصوصا من رجال الشرق . ولذلك أصبحت أحواله التاريخية والسياسية مجهولة لدى الناس ؛ حتى من جيرانه العثمانيين .

وفي كلمة جامعة نقول: إن تلك البلاد كانت تهيمن على كل ما كان يجري بين المشرق والمغرب ، وهي رابضة في أعالي سلسلة جبال القوقاز (القفقاس) الشاهقة ، التي تقوم رافعة رأسها في السماء رامية ببصرها إلى الآفاق . ومن المتحقق أن بلاد القوقاز (القفقاس) هي مهد ظهور الصناعات الحديدية .

إن مركز القوقاز (القفقاس) الطبيعي ، وبسالة أهله ، كانا دائما السبب الأكبر في حماية الدولة العثمانية وبلاد العجم من هجمات روسيا ، وفي منعها من تنفيذ أغراضها وتوسعها على حساب الدولتين المذكورتين .

وبالرغم من هذا ، فإن هاتين الدولتين الإسلاميتين لم تحركا ساكنا لحماية سكان قفقاسيا الشراكسة أو مساعدتهم ، حينما هاجمتهم الجيوش الروسية ، وشرعت في ابتلاعهم وضم بلادهم لأملاكها ، ليخلوا لها الطريق للزحف إلى الجنوب، وبسط سلطانها على ساحل البحر الأبيض المتوسط .

مع أن تنفيذ هذه السياسة من قبل روسيا كان فيه تهديد لكيان هاتين الدولتين، وخطر - لا محالة - محقق بهما . فلو ساعدت تركيا وإيران الشراكسة في حروبهم التي كانوا يحافظون بها على استقلالهم ضد روسيا ، لوجدتا فيهم حصنا منيعا وسدا محكما وعضدا مساعدا ضد عدوتهما الدائمة ؛ ذلك « الدب الأبيض » ، ثم لاستراح بالهما وحسن حالهما ؛ ولكن أبت الدولتان على هذه الأمة المجيدة كل مساعدة ، بل قد ضمتا عليها كذلك بالمساعدة الأدبية والفكرية . ولم تفكر الدولتان في شيء من هذا ؛ مع أن الظروف كانت ملائمة جدا ، ومثل هذه المساعدة كانت تجد تعصيда عظيما في « مؤتمر باريس » الذي عقد عقب حرب «القرم» ، إذ إن الميول كانت مهيأة لتعصيدها^(١) .

(١) هذا ملخص ما كتبه المؤرخ التركي مت جوناتقة يوسف عزت عام ١٩١٢م (١٣٣٠هـ) ويعد تقريرا أول رجل مسلم يكتب عن تلك المنطقة ، ويظهر أسفه لإهمال المسلمين لهذه الأمة .

ولقد عرف عن أهل تلك البلاد - مما دونه مؤرخو الإنجليز والروس - بأنهم أهل فن وتجارة ومال ؛ لا سيما في فن الحفر والرسم وصياغة المعادن وصناعة عدد الحروب . وكانت صناعتهم هذه مضرب الأمثال .

غير أن القلاقل الدائمة ، والحروب المستمرة ، ودفاعهم الدائم عن كيانهم ، وحبهم البقاء تحت الشمس ؛ كل ذلك شغلهم عن الاستمرار في إتقان تلك الفنون والصناعات ، وجعلت منهم شعبا خشنا صعب المراس ، وأمة ذات بأس شديد . ولقد غامرت روسيا ضد هؤلاء الأمجاد مغامرات عسكرية هائلة كلفتها دماء غزيرة ومالاً وافراً ووقتا طويلاً .

وكان السلطان « عبد الحميد الثاني » قد أصدر أمراً بتأليف لجنة لتكتب تاريخاً عن القفقاس ، وبكل أسف أن هذه اللجنة قد حلت قبل أن تبدأ عملها ، ولم يكتف بذلك ، بل شئت شمل أعضائها ؛ حتى أن بعضهم نفي من البلاد .

أصل الشيشان :

تعد قبيلة الشيشان من شعوب قفقاسيا القديمة جدا ، ولها تاريخ مجيد منقوش في صفحاتها الخالدة .

تحد بلاد الشيشان شمالا وغربا بنهر تيرك ومجاهل (ستب Steppes) قاجقاليين وبلاد القبرطاي ، وجنوبا بجبل (أندي) وسلسلة جبال القوقاز (القفقاس) ، وشرقا يفصلها عن بلاد الداغستان نهر (آق طاش) .

ونهر (سونجا) الآخذ من نهر (تيرك) يقسم بلاد الشيشان إلى قسمين :

- بلاد الشيشان الكبرى أو الشمالية ، وبلاد الشيشان الصغرى أو الجنوبية .
والشيشان يمتون أصلا وعرقا إلى الشراكسة ، خصوصا وأنهم من القبائل الشركسية القديمة ، ويعدون من أهل قفقاسيا الأقدمين ، ويطلقون على أنفسهم اسم (ناخ جو) أو (ناخ تسو) - ويقولون : إنهم من سلالة (طوربيل) الذي يعد أعظم رجل عندهم . ولهذا السبب تسموا أيضا (ناخجلي) التي معناها : (المللة) بلغتهم . واللزجي والقوموق يسمون الشيشان (ميس جه غام) ، والكرج يسمونهم

(بكيست)، والشركس والروس يسمونهم (جيغن) . ومن رأي (أي الكاتب) أن الشيشان ينحدرون من قوم (طوريل) الذين ذكر هيروديت بأنهم من قبائل الشراكسة التي كانت تقطن سواحل بحر قزوين الشرقية ، وجاء عليها زمن هاجرت فيه إلى شرق قفقاسيا .

وطرأت بعض التقلبات على الشيشان الذين يمتون بأصولهم إلى الشراكسة ؛ فرحلوا وهجروا بلادهم الأصلية التي كانت ضمن بلاد الشراكسة ، واستوطنوا بلادهم الحالية .

وهم يتاخمون القبرطاي من جهة واحدة فقط . وبسبب عدم اختلاطهم بإخوانهم الشراكسة ، وبعدهم عنهم ، تغيرت لهجتهم تماما أو كادت .

وبالرغم من هذا ؛ فإنه يوجد بينهم كثيرون يتكلمون لغة الأديغة ، وعدا ذلك فإن عاداتهم وتقاليدهم وطبائعهم وأزياءهم كلها شركسية ، ولا يمكن أن يقال عنهم أنهم ليسوا بشراكسة . وهم يفتخرون ويتباهون بشركسيتهم . وهم قوم - حسب وصف الروسيين - رجالا ونساء ؛ غاية في الجمال والرشاقة ، طوال الجسم ، سريعو الخاطر ، حاضرو الجواب ، أذكاء مرحون . وقد لقبهم (الروس) بـ (فرنساوي القوقاز) .

وهم شديدا المراس ، حديدو المزاج ، سريعو الإحساس ، وربما كانوا في بعض الأحيان خشنين زيادة على المطلوب . وأما من جهة شجاعتهم وفروسيتهم ؛ فإنهم من أشجع أمم القوقاز (القفقاس) قاطبة ، وكانوا من أشد خصوم روسيا في الحروب الأخيرة .

وأزياءهم ولباسهم وأسلحتهم هي بعينها أزياء ولباس وسلاح الشراكسة ، خصوصا القاما ؛ فإنها سلاحهم المحبوب الذي لا يفارقونه أبداً .

لمحة تاريخية :

لا بد للمرء المسلم من معرفة تاريخ روسيا ، وكيف أن هذه الدولة الحديثة التكوين تمكنت في فترة من استعمار دول أخرى (إسلامية وغير إسلامية) ، وكونت روسيا القيصرية فيما بعد . وجاء النظام الشيوعي ، وضم دولا أخرى ليكون ما يسمى بالاتحاد السوفيتي . فتاريخ هذه الدولة وحضارتها عبارة عن قرصنة واستعمار للدول الأخرى ، وإن الشعوب التي رزحت تحت حكم الدولة الروسية كانت - وماتزال - ترفض سيطرة روسيا عليها ، وهذا السرد التاريخي يبين تاريخا عاما موجزا لهذه المنطقة .

تأسست - في القرن العاشر الميلادي - ولاية كييف روس التي ضمت عددا من الشعوب والأقاليم السلافية التي شملت إقليم موسكو والمناطق الغربية ، فضلا عن إقليم كييف ، وظلت هكذا إلى القرن الثاني عشر ، ثم تقسمت على شكل إمارات صغيرة ، وبدأ ضعف الشعوب السلافية ، مما شجع المغول - ثم التتار - على فرض سيطرتهم على السلاف . وتمت السيطرة من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر الميلادي حين ضعفت إمارة التتار وقويت إمارة موسكو ، وبدأت تكون نواة ما يعرف بروسيا القيصرية فيما بعد . وبدأ توسع روسيا القيصرية من القرن السادس عشر حتى القرن التاسع عشر ؛ من بحر البلطيق غربا ، والمحيط الهادي شرقا ، ومن المحيط المتجمد الشمالي حتى الحدود الشمالية للصين وأفغانستان وإيران وتركيا .

بدأ التوسع عام ١٥٣٣ - ١٦٨٩ ؛ إذ تم احتلال المناطق التي تقع شمال بحر قزوين ، ومناطق بشكيريا ، وتارستان ، فضلا عن معظم مناطق سيبيريا . ثم تبع ذلك ضم مناطق شمال شرقي سيبيريا ، والأجزاء الشرقية من كازاخستان ، والمناطق التي تقع شمال البحر الأسود ؛ وتم هذا بين عامي (١٦٨٩ و١٨٠١) . وفي عام ١٨٠١ طلبت جورجيا من روسيا القيصرية حمايتها من الأتراك والإيرانيين ، فتحرك الجيش الروسي إلى جورجيا ثم إلى شمال أبخازيا (التي تقع ضمن جمهورية جورجيا) ، فاحتل الروس عام ١٨٢٥ أذربيجان ثم أرمينيا ، ثم توجهوا نحو كازاخستان الإسلامية . وانتهى احتلال كامل

هذه المناطق عام ١٨٥٥م، فاتجهوا نحو الجنوب لاحتلال بقية المناطق الإسلامية حتى عام ١٨٨١. وفي الفترة من عام ١٨٨١ إلى ١٨٩٤ تم احتلال المناطق حتى أفغانستان وإيران (كازاخستان - أوزبكستان - قره قلق - كيرغيزستان - تركمانستان - طاجيكستان - تاجورنوباداخستان) .

أما غزو روسيا لشمال القوقاز الإسلامية فقد تم في ١٧٨٥ - ١٨٦٤ ، وقد أظهرت مقاومة أعنف من سابقتها ، فبرز القادة التالي ذكرهم:

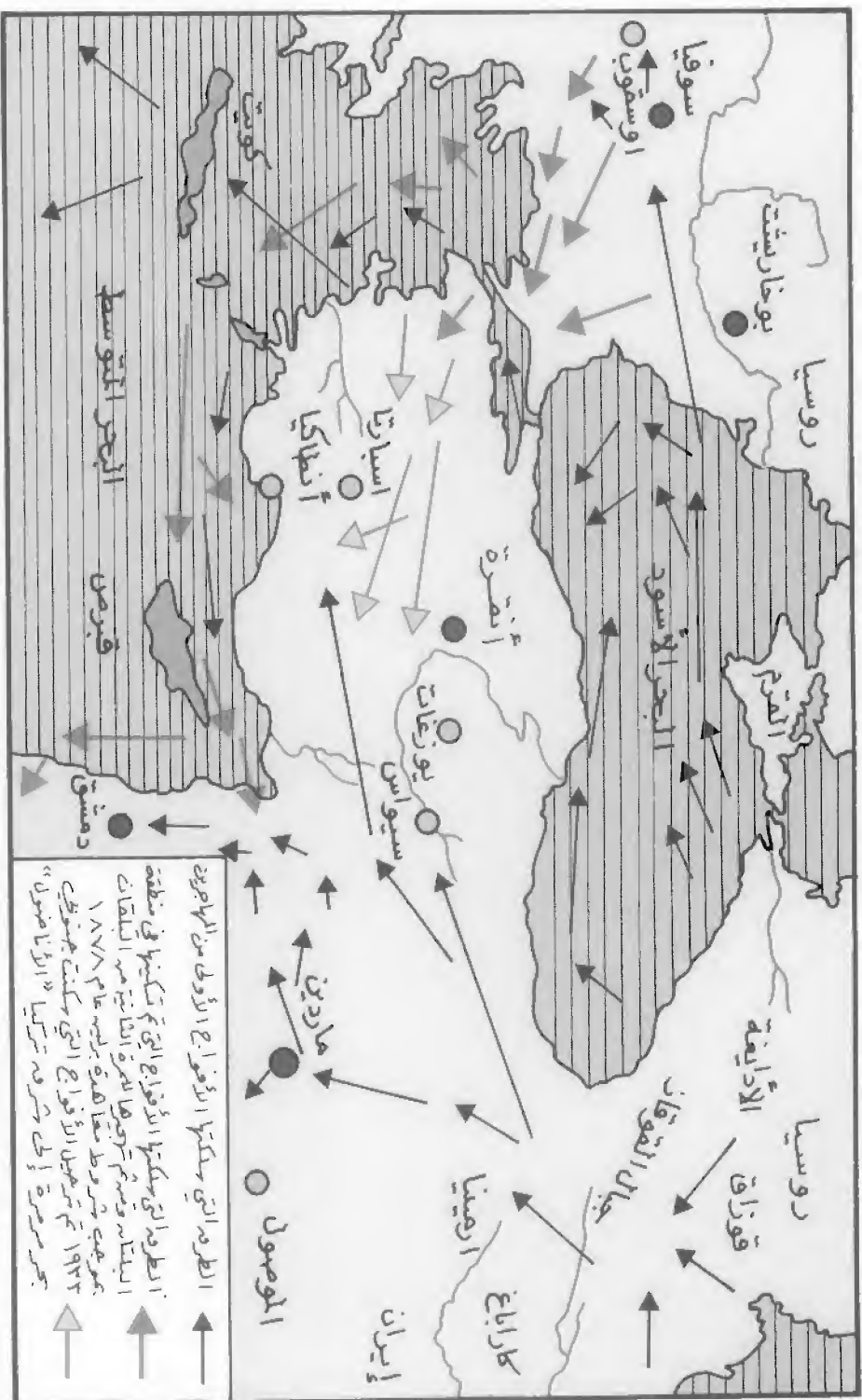
(الإمام منصور - الإمام غازي - حمزة - شامل - القائد بويسفر - القائد الحاج مراد - القائد محمد أمين) . وسيطر الروس على شعوب الداغستان والشيشان - والأنجوش في عام ١٨٥٩ ، وعلى شعوب البلقار والقبادين والأبازة والأديغة والشركس والقراشاي حتى عام ١٨٦٤. ثم ظهرت عمليات التهجير القسري لمجموعات كبيرة عبر جبال القوقاز (القفقاس) والبحر الأسود إلى تركيا وسوريا والأردن وبياتهاء احتلال القوقاز، أصبح (٣٥) شعبا مسلما تحت سيطرة الروس.

وفي نهاية القرن التاسع عشر ، وصلت مساحة الإمبراطورية الروسية إلى (٢٢، ١٩) مليون كم^٢ ، وضمت هذه الإمبراطورية أكثر من ثمانين قومية مختلفة من شعوب أوروبا وآسيا .

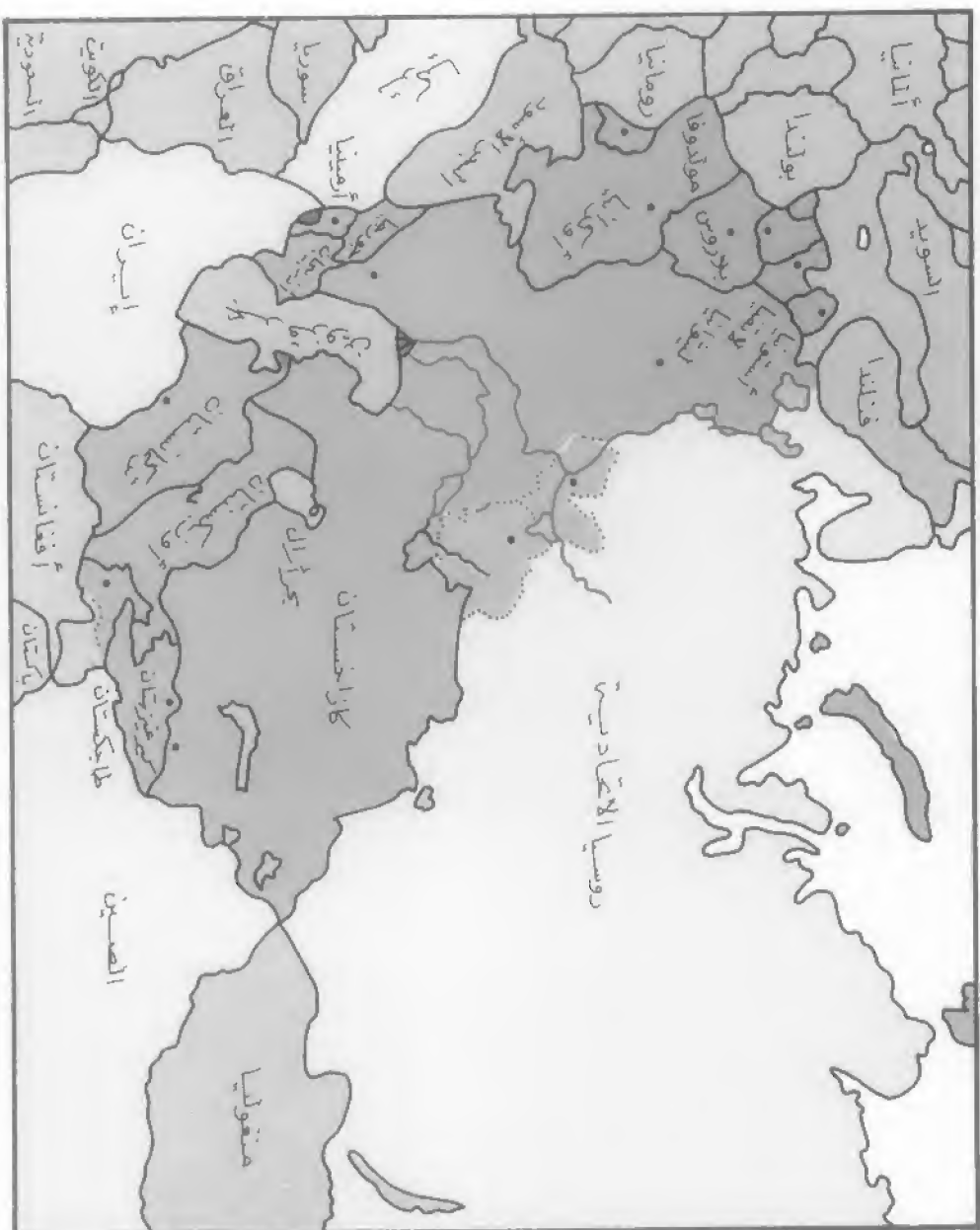
انتهى الحكم القيصري عام ١٩١٧ - بمجيء الشيوعية - التي انتهت عام ١٩٩١ م . وسنحت فرصة أولى للجمهوريات الإسلامية لإعلان انفصالها بعد سقوط روسيا القيصرية من ١٩١٧ إلى ١٩٢١ . ولكن الحكم الشيوعي سنة ١٩٢٢ ألغى هذا الاستقلال وشكل ما يعرف بالاتحاد السوفييتي الذي ضمّ ست جمهوريات اتحادية، ثم أصبحت عام ١٩٣٨ (١١ جمهورية) وعام ١٩٤٠ (١٥ جمهورية) بإضافة (أستونيا ولاتفيا وليتوانيا ومولدافيا) ، وفي عام ١٩٩١ انتهى النظام الشيوعي بعد انقلاب فاشل يوم ١٨ آب ١٩٩١ ، واستقلت ١٥ جمهورية دخلت تحت اسم (رابطة الدول المستقلة) . والدول الإسلامية التي استقلت هي: (كازاخستان - أوزبكستان - تركمانستان - طاجيكستان - وكيرغيزستان) في آسيا ، وأذربيجان في أوروبا . وبقية الشعوب الإسلامية غير

المستقلة - التي تقطن في جمهوريات ذات استقلال ذاتي ، وأقاليم ذات حكم ذاتي - تتبع إلى روسيا الاتحادية ، وهي (بشكيريا - تارستان - داغستان - شيشان أنغوش - قباردين بلقار).

والخريطتان رقم (٢) ورقم (٣) تبيان الوضع الذي استقرت عليه المنطقة بعد سقوط الشيوعية:



(۱) الخریطہ



شكل رقم (٣) الجمهوريات المستقلة

دخول الإسلام إلى منطقة القفقاس :

فتح المسلمون أذربيجان عام ٢٢ هـ أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان قائد الفتح سراقه بن عمرو ، وعلى مقدمته عبد الرحمن بن ربيعة الذي دخل باب الأبواب (دربند) ، ودخل في الإسلام: أهل أذربيجان وشروان ، والداغستان ، والقوموق . وفي أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه فتح المسلمون بلاد الأرمن ، وبلاد اللان ، ودخلوا تفليس وكان سراقه بن عمرو يوجه الفصائل إلى المواقع في تلك الجهات فتدخلها .

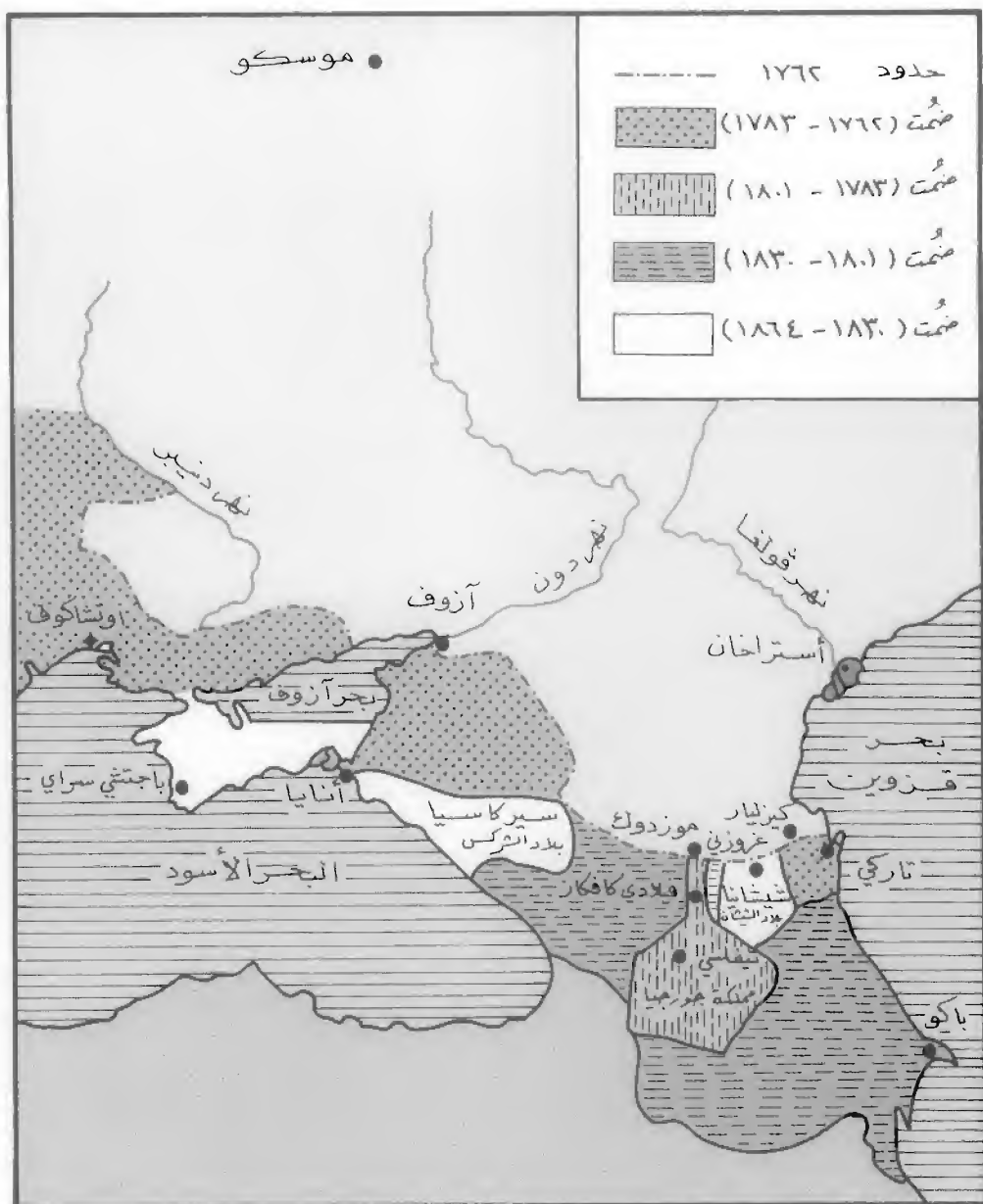
ثم توسع الفتح على السواحل الغربية لبحر الخزر ، ووصل المسلمون إلى بلنجر ، وأصيب عبد الرحمن بن ربيعة وجاءت إمدادات بقيادة أخيه سليمان ؛ الذي أصبح والياً على المنطقة ، وارتد الأرمن ، فبعث إليهم أمير الشام معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنهما بأمر الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه - حبيب بن مسلمة - فوصل إلى تفليس ودخلها .

ومع توقف الفتح ، انتفض أمراء الأرض ، وطمع أمراء الخزر فهاجموا المنطقة ، فدخل جيش المسلمين بلاد الخزر بإمرة ثابت النهرواني ، فانهزم المسلمون ، فعزل يزيد بن عبد الملك ثيباً وولى مكانه الجراح الحكمي ، وأمدّه بجيش كثيف ، وطلب إليه أن يغزو بلاد الخزر ؛ ففعل وتمكن من دخول باب الأبواب ، وصالح الترك ، واستمر الصراع مع الخزر مدة الحكم الأموي ، الذي استقر له الأمر في أرمينيا وأذربيجان واستمر الوضع أيام قوة العباسيين ؛ فلما ضعف أمرهم ، تجزأت المنطقة ؛ فقامت حكومة في تفليس ، وأخرى في منطقة الأبخاز ، ثم غزا الخزر المنطقة عام ٤١٧ هـ ودخلوا مدينة تفليس . وعندما سيطر السلاجقة على الدولة العباسية دانت لهم بلاد القفقاس عام ٤٦٥ هـ - ليس كل المنطقة التي تسمى اليوم بهذا الاسم - وإنما الأجزاء الجنوبية والشرقية منها ؛ فالشرقية كانت مسلمة ، والجنوبية كانت خليطاً من النصارى في بلاد الأرمن مع المسلمين ، وكذا شأن المرتفعات . وجاءت موجة أخرى من الخزر النصارى من الشمال واستطاعت أن تسيطر على تفليس - وكانت على النصرانية - وعرفت تلك الجهات منذ ذلك اليوم ببلاد الكرج ، ويقصد بها بالفارسية بلاد القوة ،

وكانت حاضرتهم تغليس . وحدث ذلك في الوقت الذي ضعف فيه السلاجقة في نهاية القرن الخامس الهجري . وجاء المغول ، ودانت المنطقة لهم . ولما مات جنكيز خان ، كان رشت القفجاق وبلاد داغستان ضمن أملاك حفيده باتو ، أو مغول الشمال ، أو ماعرف باسم القبيلة الذهبية ، في حين كانت الأجزاء الجنوبية تتبع أملاك ابنه الآخر تولوي ، الذي أسس ابنه هولاكو الدولة الایلخانية . وكانت جبال القفقاس الحد الفاصل بين أملاك الأستين المغوليتين ، وكان الصراع بينهما ، وغالبا ما كان هذا الصراع منصبا على المنطقة الجنوبية (أذربيجان) . ومع ضعف المغول قامت إمارات في المنطقة ، وكانت صغيرة تتناسب والجماعات التي تنتمي إليها .

وكثيرا ما كانت هذه الجماعات تغير على أملاك خانية القرم ، أو استراخان ، أو مملكة سراي - من قبل - وكان رشت القفجاق هو ميدان الغزو . واستطاعت الدولة العثمانية أن تمد نفوذها إلى هذه المناطق . وكانت المناطق التي تقع إلى الشمال منها تحت سيطرة التتار المسلمين ، وهي : القرم وأستراخان وقازان . وهي ؛ إما تبعت العثمانيين ، مثل القرم ، أو أن الخوف من الروس - الذين بدأ أمرهم يقوى بسرعة ويهدد هؤلاء المسلمين - قد جعلهم يتجهون إلى العثمانيين محبة لهم لإسلامهم . وكان نفوذ العثمانيين قد شمل المنطقة ، بدءاً من عام ٩٨٢ أيام الخليفة مراد الثالث ، حتى عام ١٠٤٩ في أواخر أيام الخليفة مراد الرابع . وشمل بلاد أذربيجان ، وداغستان والقوموق ، وأرمينيا ، والأجاد ، والأبخاز ، والأديغة ، والكرج والأوستين ، والقبرطاي ، والبلقار ، ثم امتد إلى بلاد الشيشان والأنغوش . ومع وصول العثمانيين إلى تلك الجهات ، بدأ الإسلام ينتشر في المناطق التي لم يدخلها بعد ، مثل : مناطق الشراكسة (الأوستين ، والقبرطاي ، والأديغة ، والأبخاز) ثم بلاد الشيشان والأنغوش . كان خضوع هذه المناطق للعثمانيين إسمياً ، وكان انتشار الإسلام عن طريق الدعوة من قبل بعض الرجال ، كما لا ننسى أن السكان وجدوا ضالتهم فيه ؛ إذ إنه دين الفطرة ، ولما كان الصراع قائماً بين العثمانيين والفرس ، فقد دخل الصراع هذه المنطقة ، ومد الفرس نفوذهم - أيام قوتهم - على الأجزاء الشرقية مثل : شروان وأذربيجان ، وداغستان ، وبلاد الكرج ؛ وإن كان سكان

هذه المناطق أميل إلى العثمانيين بصفتهم من أهل السنة ، على حين كان الفرس على مذهب الشيعة الذي لم ينتشر إلا في أذربيجان بعد خضوعها للفرس . واشتهر من مواقع العثمانيين في هذه الأجزاء ما كان على ساحل البحر الأسود أزاق (آزوف) وأنابا وباطوم . وعظمت قوة الروس ، وبدؤوا يمتدون نحو الشرق ، والجنوب الشرقي في بلاد التتار ، وبعد أن دخلوا أستراخان عام (٩٦٥) امتد نفوذهم حتى وصل إلى أطراف هذه الأجزاء ؛ أي ضموا إليهم ما يعرف باسم رشت القفجاق، وصاروا على حدود بلاد القوموق والأنغوش ، والبلقار والأديغة . وعندما جاء إلى حكم الروس بطرس الأكبر وضع نصب عينه السيطرة على بلاد القفقاس ؛ لاحظ الخريطة رقم (٤) .



خريطة رقم ۴۰

فلما ضعف الصفويون ، وتنازل الشاه حسين مير محمد الأفغاني ، أسرع الروس واحتلوا عام ١١٣٥ بلاد الداغستان وسواحل بحر الخزر الغربية ، وإنقاذاً لجزء من هذه البلاد تقدم العثمانيون ودخلوا أرمينيا وبلاد الكرج ، غير أن حاكم رشت الفارسي قد استنجد ببطرس الأكبر فأسرع لنجده وتنازل طهماسب الثاني آخر شاهات الصفويين للروس عن الأجزاء القفقاسية: داغستان وشروان ؛ بل وعن أجزاء فارسية في الشمال ، وهي: جيلان ، ومازندران .

غير أن شروان قد استنجدت بالعثمانيين ، فتنازل الفرس للعثمانيين عام ١١٤٤ عن بلاد الأرمن وشروان ؛ بل وعن همدان ولورستان . ونتيجة معاهدة بلغراد بين العثمانيين والصليبيين عام ١١٥٢ استقلت بلاد القبرطاي عن الدولة العثمانية ، فبدأ الضعف يتسرب إلى هذه المنطقة بسبب وجود دولة صغيرة ، هذا ، فضلاً عن أن النصارى في بلاد الكرج وبلاد الأرمن الذين تتجه أنظارهم إلى الروس - خاصة وأنهم يدينون بمذهب الأرثوذكس الذي تأخذ به روسيا - فسيطر الروس حتى عام ١١٦٤ على الأطراف الشمالية لبلاد القفقاس ، وفي أواخر أيام كاترين الثانية أخرج الإيرانيون من البلاد على يد الروس . وفي أيام بول ، الذي خلف كاترين الثانية ، خرج الروس من بلاد الكرج ؛ إذ رأى هذا القيصر عدم ضرورة مساعدة الكرج ، لكنه لم يلبث أن عدل عن رأيه وهاجم المنطقة وضمها إليه ، مما أجبر القائد الداغستاني عرفان على أن يهاجم الروس في بلاد الكرج عام ١٢١٥ ، لكنه فشل ، وابتلع الروس ما احتلوه . ثم تقدم الروس في بلاد شروان وأذربيجان عام ١٢٢٨ . وكل انتصار حققه الروس على الفرس أو على العثمانيين كانوا يضمون إثره جزءاً من بلاد القفقاس ، وكانوا كلما تهيأت لهم الفرصة ، ورأوا ضعفاً في المسلمين انقضوا على منطقة وابتلعوها . ووجد المسلمون أنفسهم في هذه المناطق وحيدين ، ورأوا الروس يتقدمون يوماً بعد يوم ، والعثمانيين والفرس يتراجعون شيئاً فشيئاً ؛ فقرروا الاعتماد على أنفسهم وتقوية الروح المعنوية . فتحركت قوة الإسلام الكامنة والرغبة في الجهاد ، ودفعتهم للموت في سبيل الله ؛ ومن طلب الموت وهبت له الحياة . واسترخصوا الدنيا ، فقوي أمرهم وألفوا حكومة في بلاد الداغستان ، كان على رأسها العلماء ، وذلك عام ١٢٤١ هـ ، وبرز الشيخ شامل ، فأرسل

الشيخ محمد أمين إلى بلاد الشراكسة ، كما أرسل العلماء إلى بقية المناطق لاستنهاض همم المسلمين . وبدأ القتال بين الشيخ شامل والروس . وفي ١٢٥٦ بدأ الشيخ شامل بالهجوم الذي استمر عشرة أعوام ، ضعفت روسيا في أثنائها ، خاصة وأنها شغلت في حرب القرم عام ١٢٦٩ فانسحبت من عدد من المناطق . وما أن انتهت حرب القرم عام ١٢٧٥ حتى حشدت روسيا جيشا يزيد عدده على ثلاثمائة ألف جندي وبدؤوا بالهجوم على بلاد الشراكسة ، وفي النهاية ، تمكنوا عام ١٢٨١ من أسر الشيخ شامل ، فأخذت أفواج الشراكسة والشيشان والداغستان بالهجرة من أراضيها ، نتيجة الاضطهاد الروسي . وقد نقلت الدولة العثمانية أعدادا منهم إلى أوروبا ، ووضعتهم على الجبهات الروسية والنمساوية . وعاد القتال بين العثمانيين والصليبيين على الجبهة الأوروبية ، وهزم العثمانيون ، وعقد مؤتمر برلين عام ١٢٩٥ ، وكان من نتائجه أن أجبر الصليبيون العثمانيين على نقل القفقاسيين من الجبهات القتالية ، لما أبدوه من شجاعة ، إلى جهات أخرى ؛ فحملوهم إلى بلاد الشام والعراق . فأقاموا في رأس العين في الجزيرة الفراتية ، وخصاصر في جهات حلب ، ومنطقة حمص ، والجولان ، وجرش في الأردن ، وعمّروا عمان ، وفي الزرقاء ، وصويلح وناعور والرصيفة ، ووادي السير ، والأزرق ، وبعض جهات شمال فلسطين . كما توزعوا في المدن . أما الذين بقوا في مواطنهم ؛ فكان العذاب يحيق بهم من كل جهة ، وكلما حاولوا أن يتذرعوا بالصبر وجدوا أنفسهم إلى الهجرة أحوج ، فعندما تسنح الفرصة لفريق منهم يفر من وطنه هائما على وجهه .

وقامت الثورة الشيوعية عام ١٩١٧-١٨ ، وأعلنت عن إعطاء الحرية الدينية وإنصاف المسلمين الذين تحملوا الأذى . فلما قويت جذورها داهمت بلاد القفقاس التي أعلنت عن رغبتها في الاستقلال وأعملت كل أنواع البطش والدمار ، وأظهرت كل أصناف الحقد على المسلمين . وكان النصارى في منأى عن الاضطهاد ، وقسمت بلاد المسلمين إلى أجزاء صغيرة ؛ متذرعة بالأجناس المتعددة واللغات المتباينة، وضمت أكثر هذه الأجزاء الصغيرة إلى موسكو بالذات.

الفرق في الوضع الديني في منطقة القفقاس وباقي المناطق في الاتحاد السوفييتي سابقا :

اتسم موقف الروس إزاء الدين الإسلامي - منذ البدء - بعداء صريح ؛ إذ إنهم ما كادوا يستولون على قازان حتى انتهجوا سياسة التنصير الإجباري . وقد دشن هذه السياسة أسقف قازان سنة ١٥٥٥ ، واستمر حتى مطلع القرن السابع عشر ، ولاقت سياسته بعض النجاح ظاهرا . ومنذ ذاك التاريخ ، تكونت جماعة من مسلمي التتر المرتدين عرفت باسم كرياشن (Kryachens) . وفي عهد القيصرية الثلاثة الأولين من أسرة رومانوف - وكانوا على شيء من الحرية - توقفت حملة التنصير مؤقتا ، ولكنها عادت من جديد في عهد بطرس الأكبر أشد عنفا ، واستمرت حتى ولاية كاترين الثانية ، وفي عهدها توقفت الحملة وأعيدت بعض الحقوق وأغلقت مدارس التنصير .

وقد دمرت المساجد وأغلقت المدارس القرآنية في المدة بين ١٧٣٨ و ١٧٥٥ فهدم الروس ٤١٨ مسجداً من ٥٣٦ مسجدا في بلاد القازان (مثلا) وأغلقت المدارس القرآنية وفتحوا بدلا عنها مدارس خاصة لأولاد المسلمين المرتدين تديرها بعثات تبشيرية ، وداسوا على أوقاف المسلمين .

وقد أعفي المرتدون من الخدمة العسكرية والضرائب . وكان يعد اعتناق الدين الإسلامي جريمة يعاقب عليها بالإعدام، وهذه السياسة تشبه السياسة الإسبانية تجاه المسلمين في إسبانيا . وفي عهد إسكندر الثاني ، عادت الحملة ؛ ولكن بطريقة ثقافية دعائية (منظمات أرثوذكسية) .

أما الحالة في شمال القفقاس ، فإنها تختلف جدا عن حالة بقية المناطق الإسلامية في الاتحاد السوفييتي ، ومطالبة المنطقة بالاستقلال أصيلة في هذه البلاد، والحقيقة أن التيار الديني وبعض الطرق الصوفية المعتدلة كانت تسيطر على أقوام تلك المنطقة لمقاومة الروس زمن الشيخ منصور سنة ١٧٨٥ حتى زمن شامل .

القضية الدينية لمسلمي روسيا في العهد القيصري والحكم الشيوعي^(١) :

إننا عندما نتكلم عن القضية الدينية فإننا لا نستطيع أن نفصل بين جمهورية وأخرى من جمهوريات الاتحاد السوفيتي المسلمة ، لأن السلطة الشيوعية كانت تحارب الإسلام لأنه إسلام ، وليس لأي شيء آخر . ولذلك فإن الكلام سيكون بصورة عامة عن القضية الدينية في الاتحاد السوفيتي ككل .

منظمة الإسلام الإدارية

يعد مسلمو الاتحاد السوفيتي - في الوقت الحاضر - ثلاثين مليون نسمة (إذا صح هذا العدد فيكون الروس قد أفنوا في بحر خمسين عاماً ٢٠ مليون مسلم ، وقد ثبت بالإحصائيات الروسية أن ستالين وحده قتل ١١ مليوناً) يتمون إلى قوميات كانت قبل عام ١٩١٧ تدين بالإسلام ؛ فهم إذن القوة الإسلامية الخامسة في العالم بعد إندونيسيا وباكستان والهند والصين (إذا صح هذا العدد فيكون مسلمو روسيا القوة الإسلامية الثامنة في العالم ؛ إذ يأتون بعد إندونيسيا وبنغلاديش وباكستان والهند ونيجيريا ومصر ، ثم الصين التي يقال إن عدد المسلمين فيها يبلغ خمسين مليون نسمة) . إن العدد الأوفر من مسلمي الاتحاد السوفيتي هم من أهل السنة ، ومن المذهب الحنفي ، باستثناء الداغستانيين الذين يعملون بالمذهب الشافعي . والمسلمون غير السنين في الاتحاد السوفيتي هم من الشيعة الجعفرية (ويعدون مليوني نسمة تقريباً) ، والعزيريين ، وبعض الجماعات الموجودة في آسيا الوسطى ، والإسماعيلية (ويعدون أربعين ألف نسمة تقريباً وهم يقطنون بامير) ، والشيعة المتطرفين وهم بضعة آلاف يقطنون فيما وراء القفقاس ، والبهايين وهم من سكان تركمانستان ، واليزيديين أو عبدة الشيطان وهم يعدون نحو ٥٠٠٠ نسمة ويسكنون أرمينيا .

وللمسلمين في الاتحاد السوفيتي تشريع خاص ، أقرته المادة ١٢٤ من دستور الاتحاد السوفيتي ، وهو مأخوذ - كما هو أو بتعديل بسيط - من الدساتير

(١) لا يمكن الفصل في وضع المسلمين بين بلاد القفقاس وغيرها، لذا أثرا كتابة الموضوع بصورة عامة، إذ إن هناك معلومات إضافية زيادة على ما ذكره (سيد عبد المجيد بكر في العدد ١) من مجلة الحكمة .

الجمهورية ، ولهم أيضا تشريع إداري .

ولضمان حرية الضمير ، فصل الاتحاد السوفييتي الدين عن الدولة ، والمدرسة عن الدين ، واعترف للمواطن بحرية ممارسة الدين والدعاية ضد الدين (راجع المادة ١٢٤ من دستور الاتحاد السوفييتي لسنة ١٩٣٦) .

ومسلمو القفقاس يخضعون للمركز الإسلامي لأهل السنة في شمال القفقاس وفي داغستان ، وتشمل صلاحياته جميع المناطق الجبلية في شمال القفقاس وجمهورية الشيشان - أنغوش وأوسيتي الشمالية وكابارد - بلكان وداغستان والمناطق المستقلة داخليا من بلاد أديغ وكاراتشاي والشركس ، واللغة المركزية هي العربية .

ومن الصعب جدا تعريف الدور الذي تقوم به مثل هذه المراكز . والمراقبون الأجانب ينظرون إليه نظرة متشائمة. وإليك ما كتبه أديب باكستاني سنة ١٩٥٨ : « ليست مهمة هذه المراكز الروحية نشر الدين ولا إعطاء ثقافة دينية ، بل مهمتها مراقبة الدين وتنظيمه على هوى حكومة الاتحاد السوفييتي » . وفي الواقع ، فإننا نجعل جهلاً تاماً حالة المسلمين ، لأن المصادر السوفيتية بخيلة جدا بالمعلومات بهذا الصدد . فنحن لا نسمع شيئا عنهم إلا ما يصرح به المفتون في المناسبات ، وخاصة مفتي آسيا الوسطى في مختلف المؤتمرات العالمية ؛ فهو لا يقصر قط بإعلان تعلق المسلمين بالحكومة السوفيتية والثناء على الحرية الدينية التي منحهم إياها دستور الاتحاد السوفييتي . والحقيقة هي أن الإسلام ، (مثلته مثل المسيحية واليهودية في الدولة السوفيتية ؛ فهي دولة علمانية معادية رسميا للدين) لم يعد ذلك الدين العالمي ، بل أصبح مجرد عبادات يقوم بها المؤمنون ، وتعمل الحكومة بكل الوسائل لإنقاص عدد المسلمين ؛ فقد هدمت جميع المؤسسات الجماعية التي كانت تجعل للدين سيطرة على المسلمين ، فألغت العمل بأحكام الشريعة وسلبت الوقف من أصحابه ومنعت الزكاة وأبطلت التعليم الديني .

نعم ، إننا نعلم أن الحكومة تسمح للمراكز الدينية بأن تنشر عددا ضئيلا من الكتب ذات الصبغة الدينية ، ففي سنة ١٩٥٥ - ١٩٥٦ طبع مركز آسيا الوسطى القرآن الكريم - بالعربية - طبعة أنيقة وجميلة وغنية بالحواشي ، ولكنها كت

ملينة بالأخطاء الطباعية . ويطبع مركز آسيا الوسطى - كل سنة - عشرة آلاف نسخة من يومية دينية صغيرة مؤلفة من (١٢) صفحة ، باللغة الأوزبكية المكتوبة بحروف عربية ، وفيها التاريخان ؛ العربي والغريغوري مع ذكر الأعياد الدينية والمدنية . ونحن نجهل فيما إذا كانت المراكز الأخرى تنشر مثل هذه المنشورات ، فإننا لا نعرف شيئاً طبع في الاتحاد السوفيتي منذ نهاية الحرب الثانية وإلى اليوم إلا نشرة دينية واحدة مؤلفة من (٦٩) صفحة مصورة ومكتوبة باللغة التتارية القازانية ، وبحروف عربية ، وهي : « الإسلام والطقوس الدينية الإسلامية » بقلم شاكر بن شيخ الإسلام . ولكن الحكومة الروسية تنشر سنوياً مئات الكتب للدعاية ضد الإسلام والمسلمين . أما التعليم الديني فهو ممنوع منعاً باتاً في مدارس الدولة ، ولكن وجود مدارس دينية محضة لتخريج علماء دين أمر جائز وقانوني - نظرياً - على أن تكون هذه المدارس تحت إشراف المراكز الدينية ومراقبتها . ومنذ السنة ١٩٤٥ لم يسمع إلا بمدرسة واحدة من هذا النوع في طول الاتحاد السوفيتي - سابقاً - وعرضه ، وهي مدرسة «ميرعرب» في بخارى ، وقد أنشئت سنة ١٩٣٥ وأغلقت بعد الثورة ثم أعيد فتحها سنة ١٩٥٢ . ولا تضم هذه المدرسة - التي ينتهي منها الطالب في بحر خمس سنوات - سوى مائة طالب ، أكثرهم ألحق سنة ١٩٥٥ بجامعة الأزهر في القاهرة . ويبدو - من أقوال مختلفة - أن مستوى التعليم في هذه المدرسة ليس رفيعاً ؛ فالمدرسة لا تخرج فقهاء كالقضاة والمفتين ، ولا علماء ؛ بل قراء قرآن وخطباء مساجد ومؤذنين . ويبدو من المعلومات القليلة التي لدينا أن نشاط المراكز الإسلامية نشاط هزيل ؛ فالمطبوعات الدينية نادرة جداً ، وتأثير المدارس الإسلامية معدوم ، وهذا يؤدي إلى قحط العالمين بالعربية - وهي اللغة الدينية التي لا بد منها لمعرفة الدين الإسلامي . وأخيراً ، فإن جميع الناس متفقون على التأكيد بأن عدد المساجد العائدة رقابتها إلى المراكز الدينية ضئيل جداً .

الدعاية ضد الإسلام

لمكافحة الاسلام ؛ تستعين السلطات الشيوعية بسلسلتين من الحجج ، أولاهما تصلح لمكافحة كل الأديان على السواء ؛ وهي معروفة لا تحتاج إلى

شرح ، وتتلخص بأن الإسلام - مثل غيره من الأديان - (أفيون الشعوب) ، وينطوي على أيديولوجية رجعية مناهضة للعلم ويعطي فكرة مضحكة وكاذبة عن المجتمع ، ويطبع المرء بطابع الاستسلام والخنوع ويصرفه عن العمل الثوري . والإسلام - مثل غيره من الأديان - سلاح في يد الطبقة المستقلة . وأما الحجج الأخرى ؛ فهي موجهة خصيصا ضد الإسلام ، وتعرضه على أساس أنه دين بدائي مضحك وخليط عجيب من العقائد المسيحية واليهودية والوثنية . وقد وضع أسسه ممثل الإقطاعية التجارية في مكة لكي يبرر دينيا حملات النهب والسلب التي يقوم بها أرستقراطيو العرب . ونستطيع أن نذكر أمثلة كثيرة تدل على عداوة الحزب الشيوعي للدين الإسلامي ، منها: أن القرآن يأمر بالظلم وعدم المساواة، وأنه يمدح خضوع المرأة ، وأن التشريع الإسلامي مجرد مجموعة من القوانين هي أفضح ما عرف الإنسان من ظلم .

ومكافحة الإسلام والعناية بنشر الإلحاد يقعان - من حيث المبدأ - على عاتق كل منظمات الحزب ، وعلى الكومسومول ، وكذلك على الفروع الإقليمية لمؤسسة ماركس - أنجيل - لينين ، وعلى كل وزارات الثقافة في جميع الجمهوريات . وأما عمليا ؛ فهناك منظمة تعرف باسم: جمعية نشر المعلومات السياسية ، أنشئت إثر الحرب ، وصلاحياتها شبيهة بصلاحيات (اتحاد من لا إله لهم) ، وهي التي تقوم بحملات الدعاية ضد الإسلام . والمركز الرئيس لهذه المنظمة هو موسكو ، ولها فروع في كل الجمهوريات ، وهذه الفروع تشرف على نشاط المنظمات الإقليمية وما دونها من منظمات مقامة في المدن والقرى . وألقت المنظمة في أوزبكستان سنة ١٩٥١ أكثر من عشرة آلاف محاضرة ضد الإسلام . وأخيرا ، وفي سنة ١٩٦٣ ، ألقت المنظمة ذاتها في تركمانستان أكثر من ٥٠٠٠ محاضرة ضد الإسلام . يضاف إلى كل الجهود العامة جهود خاصة ؛ إذ يقصد الدعاة ضد الدين منازل المسلمين ويجبرون أهلها على الاستماع إلى أقوالهم .

وبعد موت ستالين ، اشتدت الحملة على الإسلام ؛ إذ ظهر في الاتحاد السوفيتي على مدى ثلاث سنوات - أي ما بين كانون الثاني ١٩٦٢ و ٣١ كانون الأول ١٩٦٤ - ٢١٩ كتابا ونشرة ضد الإسلام خاصة ، أو موجهة إلى

المسلمين . ومن هذه الكتب ٤٧ كتابا بلغات داغستانية مختلفة ، و ٢٦ باللغة الأوزبكسية ، و ١٥ باللغة القازاقية ، و ١٤ باللغة العزيرية ، و ١٢ باللغة الطاجيكية ، و ٦ باللغة التتية القازانية ، و ٨ باللغة القرغيزية ، و باللغة التركمانية ، و باللغة البشكيرية ، و ٢ باللغة الكاباردية ، و ٢ باللغة الشيشانية ، وواحد بكل من اللغات الأبخازية والقرهقالبكية والكاراتشائية والأنغوشية ، و (٦٠) باللغة الروسية ؛ ولكنها موجهة إلى المسلمين خاصة ، ومنها ٢٧ كتابا نشرت في داغستان .

إن هذه اللمحة الخاطفة ترينا أن الجهود مازالت جبارة في مكافحة الدين في بلاد ذات ثقافة إسلامية عريقة ؛ كالمناطق الحضرية في آسيا الوسطى ، مثل : (أوزبكستان وطاجيكستان) ، وبلاد الفولغا (ترستان) و(داغستان) . ويبدو أن هذه المناطق هي اليوم أشد البلاد تعلقا بالإسلام . وعلى الرغم من هذا الإحصاء المذهل فإن السلطات السوفييتية ترى أن الأعمال الجارية في مكافحة الإسلام غير كافية .

ممارسة الفروض الدينية إبان الحكم الشيوعي

ماذا بقي من الدين الإسلامي بعد جهود إدارية وبوليسية وعلمية استمرت خمسين سنة للقضاء عليه ؟ في الظاهر ، لم يبق منه إلا القليل ؛ إذ لا يوجد ركن من أركان الإسلام الخمسة يؤدي بانتظام في البلاد الشيوعية . فإداء الزكاة محظور ، ولم يبق من هذه الفريضة إلا ما يتبرع به المسلمون طوعا لصيانة أماكن العبادات .

والحج الواجب على كل مسلم مستطيع أدائه مرة في العمر أصبح منذ سنة ١٩٢٠ مستحيلا ، بعد أن سدت الحدود في وجوه الناس ، وفي سنة ١٩٤٥ سمحت السلطات الشيوعية به ، ولكن السفر الإفرادي غير مسموح به ؛ وإنما يسمح بالحج الجماعي الذي تنظمه السلطات ، وهي تسمح سنويا لعشرين أو

ثلاثين شخصا تنتقيهم بمعرفة المركز الروحي الإسلامي فيذهبون للحج ، ولذا فإن من حج منذ سنة ١٩٤٥ وحتى اليوم قد لايزيدون على مائة شخص ؛ وهو عدد أقل من ضئيل . ولا يسمح لكل من يطلب الحج بالذهاب للحج بل ينتقى الحجاج انتقاء دقيقا - وغالبا - ممن يتقنون العربية لكي يكون وجودهم في الحج دليلا على حياة الإسلام في الاتحاد السوفيتي سابقا .

صيام رمضان لم يمنع منعا رسميا قط ، ولكن ما وضعته السلطات في سبيل المسلمين من صعاب جعلت صيامه مستحيلا على بعض الطبقات العاملة . ومن هذه الصعوبات صرامة نظام العمل والضغط النفسي ، إذ إنه في رمضان تبلغ الحملات المعادية للدين أوج شدتها ، وتنتقد الصيام بصورة خاصة واصفة إياه أنه عادة بربرية مخيلة للعقل ، ورجعية ، وتمنع العمال من المشاركة في نشاط البناء الاشتراكي . ويبدو أن شدة الحملات على الصيام كان لها تأثير عكسي؛ إذ ازداد الناس محافظة عليه - ولا سيما في الأرياف - أما في المدن فلم يكن الأمر كذلك ، ولذا فقد اضطرت السلطان الدينية إلى إيجاد حل ، فأوصت المسلمين بأن يصوموا ثلاثة أيام من رمضان تجزيهم عن الشهر كله ، وهي أيام: ١ و ١٥ و ٣٠ منه .

وإننا نجهل كيف يستطيع المسلمون أن يحافظوا على صلواتهم الخمس ؛ فالصحافة السوفيتية لا تحدثنا عن هذه الفريضة إلا في الأرياف النائية ، والشهادة، وهي الركن الأول في الإسلام ؛ فإن المسلمين يقولونها في السر ، ولا تستطيع السلطات أن تراقب السرائر .

أما صلاة الجمعة في المسجد ، ويوم الجمعة ليس بيوم عطلة في الاتحاد السوفيتي السابق ؛ فإن أقوال الأجانب وأقوال الصحافة السوفيتية متضاربة بشأنها، ويبدو أن هذه الصلاة مازالت قائمة في المدن الكبيرة من آسيا الوسطى وتجلب إلى المساجد جماعات من المصلين أكثرهم من الشيوخ والفقراء الذين تزيد أعمارهم على الستين سنة . أما العمال والموظفون والطلبة فإنهم لا يرتادون المساجد . غير أن الأعياد الإسلامية مازالت مناسبات حسنة لاجتماعات ضخمة؛

ففي عيد الفطر - سنة ١٩٥٣ - لم يتسع المسجد وصحنه للمصلين الذين أموه بهذه المناسبة ، ويقدر الأجانب الذين حضروا هذه المناسبة عدد المصلين بـ (٧٠٠٠) نسمة بينهم عدد كبير من الشبان . ويفسر بعض المراقبين السوفيتيين قوة تأثير الأعياد الإسلامية في المسلمين - حتى غير العاملين ، أو الذين لا يدل ظاهريهم على الإسلام - بأنهم ، وإن كانوا يجهلون معانيها الروحية ، إلا أنها أصبحت جزءاً من تقاليدهم القومية . أما أهل الأرياف ؛ فإنهم يختلفون عن أهل المدن بسبب حرمانهم من الدين (الرسمي) لعدم وجود علماء دين عندهم يعلمونهم أصول دينهم ، ولانعدام المساجد في بلادهم ، ولذا فإن إيمانهم بالإسلام أخذ يتناقص بسرعة ، لكي تحل محله عبادات بدائية قريبة من دين أهل آسيا الوسطى القديم .

إننا لا نستطيع أن نكون فكرة سليمة عن قوة الإسلام الحقيقية في الاتحاد السوفيتي ؛ لا من خلال ما نقرؤه في الصحافة السوفيتية ولا مما يكتبه السياح الأجانب من أوروبيين ومسلمين . والذي لا شك فيه ، هو أنه بالرغم مما يبذله بعض الزعماء الروحيين المسلمين من جهود للتوفيق بين الإسلام والشيوعية ، يبقى الإسلام خاضعاً لضغط السلطات السوفيتية ، ويبدو - أيضاً - أن الحملات التي تشنها السلطات على المسلمين لتجريدهم من دينهم مازالت مستمرة ، وأن السلطات الدينية الإسلامية لا تستطيع أن توقف هذه الحملات . ولكن الذي لا شك فيه أيضاً هو أن فريقاً من الشعب مازال متمسكاً بدينه بشدة ويحافظ - ولو جزئياً - على أداء واجباته العملية . ولكن الذي لا ينكر أيضاً هو أن فريقاً كبيراً من الشعب ينكر الدين ، أو يجهل ولا يؤدي واجباته قط .

وفي سنة ١٩٦٥ جرى تحقيق في حي (يانفي حياة) الإسلامي من مدينة طشقند ، دل على أن كل الرجال والنساء الذين قطعوا سن الخامسة والخمسين - ويتمون إلى طبقة متوسطة - كانوا مؤمنين ، وكان ١٠٪ منهم يحافظون على عباداتهم محافظة تامة ، ويؤدون صلاة الجمعة في المساجد بانتظام . ولوحظ أن الملحدين والمهملين لواجباتهم الدينية يعودون إلى دينهم حينما يبلغون الخامسة والخمسين ؛ وذلك عملاً بالتقاليد وبروح القومية ، ولكي لا يكونوا منبوذين من

الجماعة الإسلامية . وهاهي الأجوبة التي حصل عليها المحققون: «أنا مؤمن لأن الكافر يصبح أضحوكة من كل الناس » ، « أنا مؤمن لأن والديّ كانا مؤمنين ، وأنه لا يجوز مخالفة الوالدين » ، « أنا مؤمن لأنني مسلم » . وهذا الجواب الأخير يدل على أن لفظ المسلم - بالنسبة إلى مسلمي آسيا الوسطى - يعني القومية أكثر من الدين .

وأخيرا ، يبدو أن أشد المسلمين بعداً عن الإسلام والذين قبلوا طراز الحياة السوفيتية بما في ذلك الإلحاد الرسمي ، يحرصون على دوام صلاتهم بجماعتهم ولو كانوا لا يزالون بقطع علاقاتهم بدين أسلافهم . وإذا كان الختان هو العلامة الوحيدة التي تدل على نسبة المرء إلى جماعة المؤمنين ، وهو الشيء الوحيد الذي يميزهم عن غير المؤمنين ، فإننا إذا رجعنا إلى أقوال الصحافة السوفيتية - التي هي دون غيرها شبهة - نراها تذكر أن أكثرية كبيرة من المسلمين مازالت تختن ، حتى أولئك الذين قطعوا صلاتهم بالإسلام رسمياً ، أمثال المثقفين والكومسومول وأعضاء الحزب الشيوعي . وبالتالي ، فإن الإسلام مازال حياً على اعتبار أنه صلات اجتماعية محضة يستطيع بها المسلمون أن يميزوا أنفسهم عن الروس .

الحالة الاجتماعية

لقد دخل الإسلام إلى منطقة الشيشان - أنغوش في القرن الثامن عشر الميلادي (الثاني عشر الهجري) ، على يد الدعاة إلى الله من تركيا . ودخل إلى الداغستان وأذربيجان على يد الدعاة أيضاً .

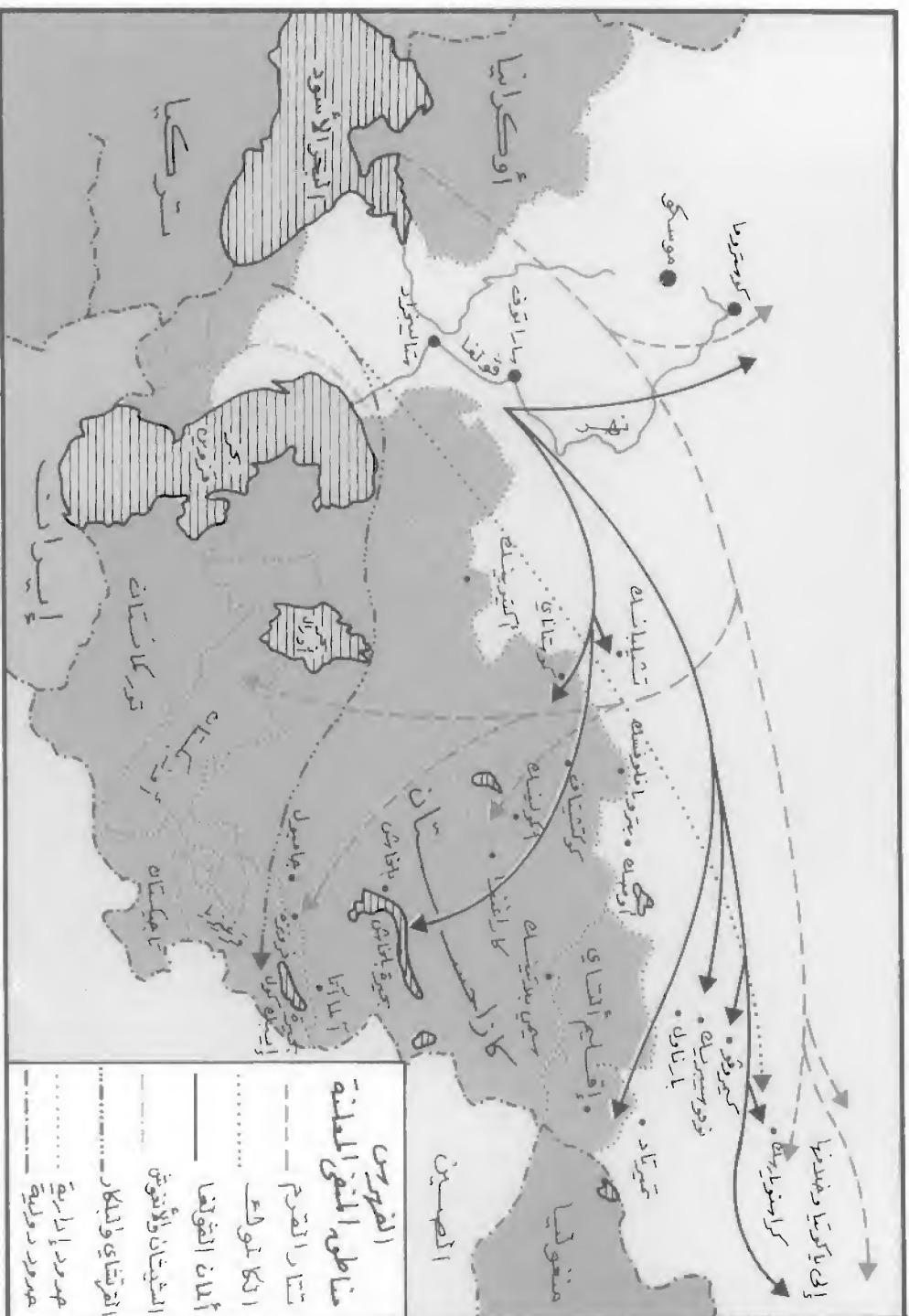
وقد سقطت هذه المنطقة بيد القياصرة في القرن التاسع عشر الميلادي (١٨٥٠م) ؛ الثالث عشر الهجري ، وبالذات في عام ١٢٦٧هـ .

وقد حاولت روسيا القيصرية تنصير السكان المسلمين ، ولكن سياستها التنصيرية فشلت فشلاً ذريعاً بالرغم من الاضطهاد الشديد في هذا السبيل . وعندما استولت القوات البلشفية على القوقاز (القفقاس) بما فيها الشيشان ، قام لينين في نوفمبر (١٣٤١هـ - ١٩٢٢م) بجعلها مقاطعة ذات حكم ذاتي ، كما جعل الأنغوش - أيضاً - مقاطعة ذات حكم ذاتي في يوليو (١٣٤٣هـ - ١٩٢٤م)

وفي يناير (١٣٥٣هـ - ١٩٣٤م) ، تمّ دمج هاتين المقاطعتين . وفي ديسمبر (١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م) أعطيت اسم جمهورية ذات حكم ذاتي . وعندما غضب ستالين على سكان هذه المناطق - كما غضب على سكان القرم وقابرديار - أصدر أمره في ٢٣ فبراير ١٩٤٤ بسبي جميع السكان ونفيهم إلى سيبيريا . . . وألغى جمهورياتهم ، ووزع أراضيها على جمهورية جورجيا . وهكذا تتضح بشاعة الحكم البلشفي الشيوعي الكالغ الرهيب ؛ فقد قام ستالين بنفي عدة شعوب إسلامية بكاملها من مواطنها ، وهي شعوب القرم والشيشان والأنغوش والقابرديار والبلكار . وقام اليهودي ميخائيل سوسلوف الذي أصبح المنظر العقائدي للاتحاد السوفيتي - سابقا - بتنفيذ حملة النفي ضد السكان المسلمين من مناطقهم في القوقاز (القفقاس) ، وبلغ عدد المنفيين مليوناً وستمئة ألف شخص أجبروا على ترك ديارهم وأوطانهم في حالة بائسة ؛ لاحظ الخرائط (٧،٦،٥).

وقد مات عشرات الآلاف في أثناء رحلة الموت هذه ، كما مات عشرات الآلاف أيضا في ثلوج سيبيريا ؛ انظر الخريطة رقم (٨) .

وقد قام مجلس السوفييت الأعلى بإلغاء قرار ستالين الذي اتهم فيه هذه الشعوب الإسلامية بالتعاون مع النازيين ، وبرأ هذه الشعوب من هذه التهمة ، وسمح لشعب الشيشان والأنغوش بالعودة إلى وطنهم في عام (١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م) . وعند عودتهم إلى وطنهم وجدوا جميع مساجدهم وجوامعهم مهتمة . وظلت جمهورية الشيشان - أنغوش حتى عام (١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م) الإقليم المسلم الوحيد في الاتحاد السوفيتي - سابقا - الذي أجريت فيه التجربة الجذرية القاضية بمحق الدين الإسلامي من هدم وحلّ لجميع المؤسسات وأمكنة العبادة .



الخريطة رقم (٨): مناطق النفی المعلنه.

السكان

يذكر إحصاء عام ١٩٧٩ أن سكان الشيشان - أنغوش يبلغون ١,١٥٥,٠٠٠ شخص ، ويشكل المسلمون ٦٦,٥٪ موزعين على النحو الآتي: شيشان ٦١١,٠٠٠ شخص ، أنغوش ١٣٥,٠٠٠ شخص ، داغستان: ٢٢,٠٠٠ شخص ، أما الروس فقد أخذ عددهم يتناقص ؛ ففي حين كانوا يشكلون ٤٩٪ من السكان عام ١٩٥٩ م ، إلا أنهم أصبحوا يشكلون ٢٠٪ فقط من السكان عام ١٩٧٩ ؛ وذلك بسبب عداء السكان الأصليين المسلمين للعتصر الروسي ، كما يقول المؤلفان الفرنسيان بينفسن ولومرسيه في كتابهما: المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي .

وهذا يعني أن الروس لا يزدادون بينما يزداد السكان المسلمون وذلك - أيضا - بسبب التناسل المرتفع لدى المسلمين ، والمنخفض لدى الروس . ومرة تلو المرة، نرى أن ازدياد النسل في جميع مناطق الاتحاد السوفيتي - سابقا - هو العامل الأساسي في الحفاظ على الهوية الإسلامية والعرقية لهذه الشعوب التي واجهت حرب إبادة كاملة من المستعمر الروسي .

ويمكننا أن نرى ذلك جليا في الجدول الآتي:

نرى في هذا الجدول أن نسبة المسلمين المثوية انخفضت في أربع من الجمهوريات المسلمة الست بين سنة ١٩٣٩ وسنة ١٩٧١ . ولم تزد نسبة المسلمين إلا في أذربيجان وتركمانستان . وما يدهش له أن هذا الانخفاض العام حدث على الرغم من ازدياد المسلمين النسبي الذي يفوق بكثير ازدياد السكان غير المسلمين النسبي . والجواب عن هذا التناقض الظاهر ، هو أن هجرة هائلة من غير المسلمين اتجهت إلى تلك المناطق حتى صار المسلمون في أكبر الجمهوريات المسلمة أقلية اليوم ، وهذه الجمهورية هي كازاخستان ، وهؤلاء المهاجرون أكثرهم من الروس .

الجمهورية	مجموع السكان	نسبة المسلمين	مجموع السكان	نسبة المسلمين
	١٩٣٩	الثوية ١٩٣٩	١٩٧١	الثوية ١٩٧١
كزاخستان	٦,١٥٠,٠٠٠	٥٠	١٣,٠٧٠,٠٠٠	٤٣
أوزبكستان	٦,٢٨٠,٠٠٠	٩٣	١٢,٣٠٠,٠٠٠	٨٤
آذربيجان	٣,٢١٠,٠٠٠	٧١	٥,٢١٩,٠٠٠	٧٦
كرغيزيا	١,٤٦٠,٠٠٠	٧٨	٣,٠٠٠,٠٠٠	٦٣
تاجكستان	١,٤٩٠,٠٠٠	٩٦	٣,٠٠٠,٠٠٠	٨٢
تركمنستان	١,٢٥٤,٠٠٠	٨٠	٢,٢٢٣,٠٠٠	٨٣
روسيا	١٠٩,٢٨٠,٠٠٠	٤,٤	١٣٠,٧٠٠,٠٠٠	٥,٨
أوكرانيا	٣٠,٩٦٠,٠٠٠	٢,٠	٤٧,٤٩٦,٠٠٠	٢,٠
جورجيا	٣,٥٤٠,٠٠٠	١٢,٠	٤,٧٤٠,٠٠٠	١٥,٠
أرمينيا	١,٢٨٠,٠٠٠	١٥,٤	٢,٥٤٥,٠٠٠	٢,٠
باقي الجمهوريات	٥,٦٠٠,٠٠٠	١,٠	١٧,٥٠٠,٠٠٠	٢,٠

تزايد السكان في الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفيتي (السابق)

ولنحاول الآن أن نصل إلى عدد الروس الذين هاجروا إلى المناطق الإسلامية. ففي عام ١٩٣٩م كان مجموع سكان الجمهوريات الست ١٩,٨٤٤,٠٠٠ نسمة ، وكان بينهم ما يقارب ١٤.٧٦٦,٠٠٠ مسلم و ٥,٠٧٨,٠٠٠ من غير المسلمين ، وفي عام ١٩٧١م صار عدد السكان للجمهوريات الست ٣٨,٨١٢,٠٠٠ نسمة من بينهم ٢٦,١١٠,٠٠٠ مسلم و ١٢,٧٠٢,٠٠٠ من غير المسلمين . فإذا اعتبرنا زيادة غير المسلمين الطبيعية ، يكون عدد من هاجر إلى الأراضي الإسلامية بين عامي ١٩٣٩ و ١٩٧١ م ٥,٧٠٠,٠٠٠ شخص مع أولادهم . وهذا رقم هائل يساوي ضعف عدد اليهود الذي هاجروا إلى فلسطين من أوائل القرن الميلادي إلى يومنا هذا . وهذه الأرقام يمكنها أن تعطينا نظرة مبسطة عن محنة إخواننا في تلك المناطق . ولولا ازديادهم الطبيعي المرتفع لصاروا أقلية في أكثر من جمهورية واحدة . وبقي لنا أن نجيب عن سؤال واحد وهو: إذا لم يكن هناك مهاجرون من خارج الاتحاد السوفيتي ؟ وبما أن أكثر المهاجرين يقدمون من روسيا ، وأن نسبة ازدياد المسلمين أعلى من نسبة ازدياد الروس ، فسوف يؤدي ذلك إلى ازدياد نسبة المسلمين في جمهورية روسيا نفسها ، وذلك ما حدث فعلاً ؛ فقد ازدادت نسبة المسلمين في روسيا من ٤,٤٪ إلى ٥,٨٪ كما ازدادت نسبة المسلمين في جمهورية جورجيا من ١٢٪ إلى ١٥٪ في الفترة نفسها .

وبإيجاز ، نرى أن المسلمين يزدادون في الاتحاد السوفيتي - سابقا - بسرعة تكاد تكون ضعف سرعة تزايد الروس وغيرهم من غير المسلمين . وهذا الوضع له تأثير حسن من ناحيتين :

- ١ - يرفع معدل المسلمين العام في الاتحاد السوفيتي - سابقا - .
- ٢ - يخفف من ضغط الهجرة الروسية ، ويعين المناطق الإسلامية على الحفاظ على طابعها الإسلامي .

يتضح لنا من هذه الدراسة أن للمسلمين في الاتحاد السوفيتي - سابقا - مستقبل لا ريب فيه . فلديهم الشرط الأساسي للبقاء ؛ وهو الحيوية

الديموغرافية. فهل يمكننا أن نعينهم على اكتساب الشرط الأساسي للبقاء مسلمين؛ بإعانتهم على معرفة أبسط تعاليم الإسلام ؟ أسأل هذا السؤال ولا أدري بماذا أجيب عنه، وظروف العالم الإسلامي الراهنة لا تخفى على أحد .

وبالرغم من بقاء الشيشان - والأنغوش في المنفى السيبيري المتجمد لأكثر من ١٥ عاما إلا أنهم استطاعوا أن يحتفظوا بينيتهم الثقافية وهويتهم الإسلامية ، فلما عادوا إلى موطنهم أظهروا لغتهم كما أظهروا تمسكهم بالتقاليد الإسلامية ونظامهم العشائري . ويقول كتاب المسلمون المنسيون في الاتحاد السوفيتي:

« بالرغم من سنوات السبي والعيش في المنفى حافظ الشيشان - أنغوش على البنية التقليدية لمجتمعهم المقسم إلى عشائر لا تزال قائمة إلى يومنا هذا ، وتشكل حاليًا الأساس للتنظيمات الصوفية . التي تبث روح المقاومة ضد المستعمر الروسي » . وقد نشرت مجلة (أرايا) ديسمبر ١٩٨٢م قصة المجاهد الشيشاني الذي فرّ إلى الغابات وقتل أربعين من أعضاء الحزب الشيوعي قبل أن يستشهد . ولما قتل وجدوا مصحفا صغيرا معلقا على صدره . ويقول المصدر السابق في فقرة أخرى: « لقد ترك عمل الطرق الصوفية وشما عميقا في طابع الإسلام عند الشيشان - والأنغوش بحيث يتميز بصرامته وتصلبه وكرهه للروس الأجانب .. ويقرُّ كلُّ المراقبين السوفيت أن جمهورية الشيشان - أنغوش هي الحصن الأكثر صلابة للإسلام التقليدي ، وأن سكانها هم الأكثر تدينا بين مسلمي الاتحاد السوفيتي - سابقا - ومع ذلك فقد اختارت السلطات الروسية هذه الجمهورية بالذات ليجروا فيها الاختبار الجذري الهادف إلى تدمير الدين بقفل المساجد، ولم يبق في جميع أرجاء هذه الجمهورية مسجد واحد . وقد قوبلت هذه التدابير الاستبدادية القسرية بتغلغل الصوفية تغلغلا شبيه كامل - وقد قدر في عام ١٩٧٧م عدد مريدي الطرق الصوفية بأنهم نصف المؤمنين أو نصف السكان المسلمين ، ونتيجة لخوف السلطات من هذا النفوذ الصوفي المعادي للروس بشدة، فقد سمحت بفتح مسجدين في قرية قرب العاصمة غروزني ، وفي عام ١٩٨٠م فتحت خمسة مساجد أخرى في القرى المنتشرة .

إن النفي لمجاهل سيبيريا أعطى نتيجة لم تكن في الحسبان ؛ فقد أدى ذلك إلى وثبة جديدة للحركات الصوفية التي كانت الرمز الوحيد للأمة في معسكرات سيبيريا ومنفى السهوب الكازاخية ، وكانت دافعا أساسيا لحب البقاء عند جميع المنفيين . ويعترف بهذه الحقيقة كل الاختصاصيين الروس .

إن الشعور القومي مرتبط هناك بالشعور الديني ، أما مفهوم القومية العلمانية فليس له أي وجود » .

لغة الشيشان

بعد دخول الإسلام انتشرت اللغة العربية فضلا عن لغة الشيشان (الوايناخ) التي كانت تكتب بالحرف العربي حتى مجيء الثورة البلشفية الشيوعية عام ١٩١٧ ؛ فكتبت باللاتينية في بداية الأمر ثم تحولت إلى الروسية .

والجدول الآتي يمثل أنواع اللغات في منطقة القفقاس . وهو مأخوذ من الموسوعة البريطانية عام ١٩٧٦

جغرافية بلاد الشيشان

على السفوح الشمالية لجبال القوقاز تقع جمهورية الشيشان والأنغوش ومساحتها ١٩,٣٠٠ كم^٢ ، يسكنها ما يقارب مليون وربع المليون نسمة ، لغتهم من عائلة اللغات القفقاسية أو القوقازية ، ويقطع بلادهم نهر «تيرك» الذي ينبع من جبال القفقاس في جمهورية جورجيا ، ويسير في عدة جمهوريات قفقاسية ويبلغ طوله قرابة ٥٠٠ كم ، ويمر فرع منه في العاصمة « غروزني » (يسمى فيها نهر سيلج) ويصب في بحر قزوين - أي الخزر - كما كان يسمى من قبل . ويعد نهر (تيرك) من أهم أنهار قفقاسيا .

وتنقلب المنطقة بسبب تدفق المياه الجارفة من الجبال إلى جنان وارفة ملأى بالمزروعات وبالأشجار الكثيفة ، ومع هذا ؛ لا تعد بلاد الشيشان ذات شهرة

المجموعات	اللغات
١- مجموعة أديغة - أبخاز	أباظة ، أديغة ، قباردين (قبرطاي) ، أوييخ ، أبخاز
٢- مجموعة الوايتاخ	شيشان ، أنجوش ، باتسو
٣- مجموعة الداغستان	أفار ، لزجي ، دارجين ، لأك ، تباراسان ، عندي ، بوتليخ ، جودوبري ، شمالال ، بغولال ، تندي ، كاراتا ، أخفاخ ، ديدو ، خفارشي ، هينوخ ، بزتا ، حونزيب ، كوباتشي ، كوري ، أغول ، روتول ، تساخور ، أرشي ، كريكز ، بودوخ ، خينالوج ، أودي جورجية ، مجريليان ، لاز ، سفان .
٤- المجموعة الكارتفيلية	
٥- اللغات الأخرى	روسي ، أذري ، أرمني ، أوسيت ، قراشاي ، قومق ، بلقار ، ناغواي ، كردي ، يوناني .
المستخدمة في القوقاز	

مجموعات اللغات القوقازية الأصلية

المجموعات واللغات	مناطق الاستعمال
أ - مجموعة الأوغور أو الشقائي	إ.س ^(١) ، أفغانستان ، الصين
١ - الأوزبكية	إ.س ، الصين .
٢ - الأوغورية	
ب - مجموعة التركمان أو الأوغور	
١ - التركية	تركيا ، دول البلقان ، قبرص ، عدد من الدول العربية ، إ.س .
٢ - الأذربيجانية	إ.س ، إيران ، أفغانستان
٣ - التركمانية	إ.س ، إيران ، تركيا ، أفغانستان ، عدد من الدول العربية .
٤ - الغاغوز	إ.س ، بلغاريا
ج - مجموعة القبشاق	
١ - كريم	إ.س
٢ - القوموق	إ.س
٣ - الفاراشاي - بلقار	إ.س
٤ - التارية	إ.س ، رومانيا ، تركيا ، الصين ، بلغاريا
٥ - البشكيرية	إ.س
٦ - الكازاخية	إ.س ، الصين ، منغوليا ، أفغانستان
٧ - قره قلباق	إ.س أفغانستان
٨ - الكيرغيزية	إ.س ، الصين ، أفغانستان
٩ - الناغواي	إ.س
د - مجموعة سيريا أو الألتاي	
١ - خاكاس	إ.س
٢ - الأوريات (الألتاي)	إ.س
٣ - توفنيا	إ.س ، منغوليا
٤ - الياقوت	إ.س
٥ - خالاج	إيران

مجموعات اللغات التركية

(١) المصدر : الموسوعة البريطانية، المجلد، ١ ، ١٩٧٦ ، صفحة ٦٣٦ إ.س = الاتحاد السوفياتي .

واسعة بالزراعة ، إذا قيست بجانب الكميات النفطية المنبثقة من أراضيها والمنبتقة من حقول غروزني . وتعد شركة النفط في غروزني ومنطقتها من أقدم الشركات في الاتحاد السوفيتي - سابقا - فقد تأسست زمن القيصرية سنة ١٨٩٣ م ، ومنذ ذلك الزمن ، والبترول من أهم الثروات فيها ، وبعضه نفط خفيف خاص بالطيران . وقد وصل عدد العاملين في الشركة إلى ٢٤ ألف عامل وموظف تقريبا ، وكثير من العاملين في الشركة استعانت بهم شركات أخرى في الاتحاد السوفيتي سابقا ، وأسهموا بجهودهم في تطوير الإنتاج في الأماكن الجديدة ؛ كما حصل في جمهورية جورجيا ، وفي سيبيريا ، وغيرها . والمعلومات المتوافرة تقول : إن إنتاج النفط وصل في بداية السبعينات إلى ٢٠ مليون طن من النفط سنويا ، وفي عام ١٩٨٧ وصل الإنتاج إلى ما يقارب ٥ ملايين طن نفط سنويا .

أما عن الزراعة ، فإن الجمهورية الشيشانية - الأنغوشية تشتهر بزراعة القمح والذرة والعنب ونبات عباد الشمس والتفاح وأنواع من الخضراوات والفواكه الأخرى .

الحالة العلمية لمسلمي المنطقة ولبلاذ الشيشان

فيما يتعلق بالمؤشرات العامة للكفاءات العلمية والتكنولوجية ، فإن أعداد الاختصاصيين لكل عشرة آلاف من السكان هي منخفضة في الجمهوريات الإسلامية - مقارنة مع الجمهوريات المستقلة الأخرى - إذ بلغ هذا العدد (٨٩٩) اختصاصيا في الجمهوريات الإسلامية ، في حين بلغ (١٢٧٢) اختصاصيا في الاتحاد السوفيتي سابقا .

وينطبق هذا النمط أيضا بالنسبة إلى مؤشر العلماء الذي بلغ (٢٣) عالماً لكل عشرة آلاف نسمة من السكان في الجمهوريات الإسلامية المستقلة ، في حين بلغ (٥٣) عالماً في مجمل الاتحاد السوفيتي سابقا ، أي أن هذا المؤشر في الجمهوريات الإسلامية أقل من نصف مقداره في الاتحاد السوفيتي سابقا .

ويلاحظ أن عدد العلماء لكل عشرة آلاف نسمة من السكان منخفض بين القوميات الإسلامية ، فقد بلغ (٣٢) بين التتار ، و(٢٩) بين الأذربيين ، و(٢٣) بين الكازاخ ، و(٢٢) بين البشكير . وينخفض هذا الرقم بشكل أكبر بين القوميات الإسلامية الأخرى ؛ فقد بلغ (١٨) بين الكرغيز ، و(١٤) بين الأوزبك ، و(١٣) بين التركمان ، و(١٢) بين التاجيك ، وأقل عدد هو (٥) بين الشيشان ؛ ويعود هذا إلى أن شعب الشيشان كان قد خضع للنفي الجماعي إلى سيبيريا في الفترة ١٩٤٤ - ١٩٥٧ ، وفقد من جراء ذلك نصف سكانه تقريبا ، بما في ذلك العلماء وخريجو الجامعات ، فضلا عن ذلك لم تتح الفرصة لأفراد الشعب الشيشاني في تلك الفترة للالتحاق بالجامعات والمعاهد العليا ، وبهذا حرم جيل كامل من التعليم العالي ، وينطبق هذا الأمر على شعوب البلقار والناغواي والقراشاي وتتار القرم الإسلامية . وبالرغم من أن عدد العلماء لكل عشرة آلاف نسمة من السكان منخفض بين القوميات الإسلامية مقارنة بالقوميات الأخرى في الاتحاد السوفييتي سابقا ، إلا أن هذه الأعداد تبقى أعلى بكثير من تلك التي في معظم الدول النامية التي بلغ فيها معدل هذا المؤشر ما يقارب (٢,٧) في عام ١٩٧٩ م . كما في الجدول أدناه:

حركة شامل الجهادية

ولد الإمام محمد عبد القادر شامل سنة ١٧٩٧م ، وتلقى تعليمه الديني مع زميله ورفيق طفولته الإمام « غازي ملا » . وعاش الإمام شامل في طفولته في بيت يكاد يجاور بيت زميله « غازي ملا » ، فنشأت بينهما صداقة حميمة وقدر لهما أن يجعللا اسم قرينتها (غيمري) على كل لسان . واشتهر الإمام شامل في مرحلة مبكرة من حياته بقوته البدنية الخارقة التي عمل بكل وسيلة على تنميتها ، وكان أول معلم لشامل هو رفيق طفولته «غازي ملا» ، وقد درس على أيدي أقدّر المدرسين في « داغستان » وأكمل دراسته وتعليمه في «يرغل» .

وهو صاحب الحكايات التي سطرها بجهاده ضد النظام الروسي القيصري

القوميات	مجمّل عدد العلماء ^(١) ألف عالم	العلماء لكل عشرة آلاف نسمة من السكان
		العدد دكتور/مرشح
تتار	٢١,٢٧٧	٣٢
شوقاش	٢,٥٤٦	١٩
بشكير	٣,١٨٨	٢٢
يهود	٦٠,٥٩٠	٤٢٤
موردوفي	١,٦٣٩	١٧
ششان ^(٢)	٠,٤٧٩	٥
أودمورت	٢,٤٢٩	١٥
ماري	٠,٦٠٣	٨

(١) المصدر: Imf , " A Study Of The Soviet Economy , " Vol , 1 , 1991. Page 223.

تم حساب هذا العدد باستخدام عدد سكان القومية وعدد العلماء لكل عشرة آلاف نسمة من السكان والمبين في هذا الجدول .

(٢) الأعداد قليلة في جمهورية الشيشان لأنهم حرموا من التعليم في أثناء النفي الجماعي في الفترة ١٩٤٤ - ١٩٥٧ وكذلك الأمر بالنسبة للبلقار والناغواي ، والقراشاي ، وغير المذكورين في هذا الجدول.

دفاعاً عن حياض ملته (٣٥) سنة ظفر فيها بقوات هذا النظام في وقائع كثيرة وألقى الرعب في قلوبهم . وإن المسلمين داخل روسيا وخارجها مازالوا يقيمون بإطلاق اسمه على أبنائهم لشدة محبتهم له وإعجابهم به . ومحمد عبد القادر شامل ينتمي إلى قبائل «لركي» من الداغستان . واللركيون يتكلمون العربية ويكتبون بها ، والداغستان - لا سيما أشرافهم - يقولون: إنهم من أصل عربي ، وإن آباءهم قدموا إلى روسيا مع مسلمة بن عبد الملك (القائد الأموي) ، وأحياناً يخلطون معه أبا مسلم ، ويجعلون قبره في مدينة غمزاخ . ويؤكدون بأنه هو باني المسجد الأول في بلاد القفقاس . وعند ما كان الأمير شكيب أرسلان - رحمه الله - في بلاد روسيا ، صادف بعض هؤلاء الأشراف ، وسمع منهم أن أصلهم من العرب الذين فتحوا الدربند، وهم يفتخرون بذلك . وقبل الثورة الشيوعية في ١٩١٧م كانت محاكم الداغستان تستعمل اللسان العربي . وفي كتاب «حاضر العالم الإسلامي» لمؤلفه الأميركي «لوثروب ستودارد» الذي ترجمه إلى العربية الأستاذ عجاج نويهض - حفظه الله تعالى - مقالة كتبها الأمير شكيب أرسلان رحمه الله تعالى ، بعنوان: «بلاد الداغستان والشيخ شامل» يقول فيها: إن الإمام شامل كان على غلط الأمير عبد القادر الجزائري ، فهو مثله: «خرج من المشيخة إلى الإمارة وتناول السيف من طريق القلم» . وإن صحافة أوربا أطلقت على شامل عندما كان يقاتل الجيوش القيصرية لقب «عبد القادر القفقاس» ؛ لأنه والأمير عبد القادر الجزائري كانا متعاصرين ، وكل منهما يحمل راية الجهاد ضد قوات الاحتلال في بلاده . وإن القادة العسكريين الأوروبيين في ١٨٤٣م كانوا يقولون: «هناك رجلان في العالم الإسلامي يجب أن يطلق عليهما اسم عظيمين: الأمير محمد شامل في القفقاس ، والأمير عبد القادر في الجزائر» . ومن الجدير بالذكر أن المواقف المتشابهة بين بطل القفقاس وبطل الجزائر أدت إلى قيام رابطة قوية من الصداقة بين هذين البطلين . فقد أعجب الأمير عبد القادر الجزائري بالإمام محمد شامل القفقاسي ، وكان يكتابه ، واجتمع الرجلان في حي العمارة بدمشق حينما مر بها محمد شامل في طريقه إلى الحجاز لأداء الفريضة . ونشرت الرسائل المتبادلة بينهما في مجله «التضامن الإسلامي»

واستمر الإمام محمد شامل في مقاتلة النظام القيصري في روسيا في سبيل الإسلام والمسلمين نحو ٣٥ سنة ، ظفر خلالها بالروس القيصريين في وقائع كثيرة وألقى الرعب في قلوبهم وأجلاهم عن كثير من البلاد التي احتلوها في الناحية الجنوبية من القفقاس .

ومنذ أن استلم الإمام شامل إمامة المجاهدين أخذ يطبق الشريعة الإسلامية في جميع أنحاء المناطق التي كانت خاضعة لنفوذه .

وكان أول حدث مهم وقع في عهد الإمام شامل هو حملته لواء (فيز) سنة ١٨٣٧ م - التي أسفرت عن خسائر جسيمة للقوات الروسية الغازية ، واستشهد مائة من المجاهدين في أثناء قتالهم البطولي .

ولكي نأخذ فكرة واضحة عن المعارك الضارية التي دارت بين الإمام شامل وبين القوات التابعة للنظام القيصري ، فإذا علمنا أن القوات التي حشدتها روسيا في حرب القفقاس للتغلب على الإمام شامل قد بلغ عددها (٤٠٠ ألف) مقاتل ، فإنه يمكننا تكوين فكرة صحيحة عن الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في تلك البلاد . ولقد قال أحد القواد الروس الذين قاتلوا الإمام: وأسروه «لولا وقوف هذا الشعب - أي القفقاسيون - المقاتل في طريقنا لكننا وصلنا إلى النيل غربا ، وإلى ممر اليابان شرقا بفضل القوات التي خصصناها للحروب القفقاسية » .

وإن نظرة شاملة في سيرة الإمام شامل تدلنا على أن الإمام كان مصمماً على القتال حتى النهاية ، فقد كرس حياته كلها من أجل مهمة مقدسة هي محاربة أعداء دينه ووطنه ، وقد واجه الكوارث والانتصارات معا في أثناء حياته ، وأنزل الهزائم بالروس . وقد قاد قوات المجاهدين منذ عام ١٨١٤ م ، فسيطرت على « الداغستان » كلها ، ولم يكن يتعين عليه أن يقاتل تلك الأعداد الهائلة من جيوش القيصر فحسب - وإنما كان يتعين أن يعالج الخلافات الداخلية والمنازعات القبلية أيضاً .

لقد أدرك الإمام أنه لا يمكن أبداً توحيد القبائل مالم تنفذ الشريعة ، وأن عليه أن يلتزم الحزم لتحقيق هذا الهدف ، وكان ينصح الناس ويحثهم . وكان عليه أن يستخدم القوة في كثير من الأحيان . لقد حقق انتصارات كثيرة ، ومع ذلك كان للتفكك أثره الفعال حتى في أعظم فترات استتباب النظام والسلام ؛ فقد كان الناس الذين تمسكوا بالعادات مدة طويلة يعدون الالتزام بقوانين الشريعة عبئاً ثقيلاً ولذلك لم يرحبوا بالقوانين الشرعية التي يطبقها نواب الإمام . وكان هناك عامل له أهميته الكبرى ، وهو أن الحرب طال أمدها ؛ فآثر ذلك تأثيراً بالغاً في جهود السكان المحليين ، ولم تكد توجد أسرة لم يستشهد منها زوج أو أب أو ابن ، بل إن عائلات بأكملها تعرضت للهلاك ، ودمرت قوى كاملة، ودكت من أساسها ، وظلت الأرض سنين طويلة دون زراعة ، ولم يعد هناك من يهتم بالبساتين ويرعاها .

حدث كل هذا في « داغستان » ، حيث كان يعيش الإمام ، وتعرضت أرض الشيشان لما هو أسوأ من ذلك ، واضطر أهلها إلى الهجرة على أيدي أصدقائهم .

ومن ناحية أخرى ، كان الروس يتفوقون مبالغ ضخمة من المال على هذا الشعب ، لأنهم كانوا في حاجة إلى جيش من المرشدين والأدلاء والكشافات والميليشيا والفرسان والجواسيس والخنوة ، ولكي تفرض روسيا سيطرتها ، كانت تنفق أموالاً طائلة على هذا الشعب الفقير الذي لم يعرف غير الحاجة والفقر والجوع . فإذا وضع المرء ذلك في اعتباره فلن يشعر بالدهشة لفشل الإمام ، بل إنه حري به أن يشعر بالذهول والدهشة لأن حركة المجاهدين استطاعت أن تعيش هذه المدة الطويلة (خمس وثلاثين سنة) من الجهاد المستمر .

نهاية البطل

قاد الإمام المجاهد محمد شامل الشعب القفقاسي في معركة التوحيد والتحرير مدة (٣٥) عاماً وقد استظل بلوائه نحو (٦٠) ألف محارب رافقوه في الإحجام والإقدام ، شعارهم شعاره ، ومصيرهم مصيره . ولم يكن هذا البطل يتصور

أن بعض أمراء جيشه وهنت عزيمتهم في القتال تحت إغراءات السلطة الزائفة ، التي لوحث بها لهم السلطات القيصرية ، وتركوه يواجه خطر الوقوع في أسر أعدائه ، وفي ١٦ أيلول ١٨٥٩ كبا جواد الحرب تحت هذا الفارس المغوار ، فاستسلم للاعتقال وأمضى مدة من الوقت سجيناً في «بطرسبرج» التي أصبحت اليوم (لينينغراد) ومنها نقل إلى كالوكا ، وبعد (٥) سنوات أمضاها شامل في البلدين المذكورين سمح له القيصر بالسفر إلى المدينة المنورة . وفي هذه الأثناء - أي سنة ١٨٦٣ - عرج على مدينة بورسعيد بمصر ، حيث التقى بالأمير عبد القادر الجزائري في اجتماع ضم معهما الخديوي محمد سعيد باشا ، عزيز مصر آنذاك .

وفي سنة ١٨٧١ م. انتهى مطاف الإمام البطل محمد شامل في هذه الحياة الدنيا وانتقل إلى الدار الآخرة ، وكان تراب المدينة المنورة المثلوى الأخير لجثمانه الطاهر ، حيث قرت عينه بالاستراحة الأبدية في ثرى الأرض التي تشرفت بجثمان سيد المرسلين نبينا محمد - ﷺ - .

فرحم الله الإمام شامل الذي كان طيباً وعطوفاً على الناس العاديين والخدم والمتسولين ، وحتى على أسرى الحرب الذين لم يكن امتناعه عن قتلهم عجزاً منه ، أو خوفاً من الروس ؛ وإنما امتثالاً لتعاليم الإسلام السمحة ، التي كانت تمنعه من ذلك مهما تقوّل عليه الأفاكون . وكان مقتنعاً أن صلوات المساكين ودعواتهم مستجابة عند الله . وعندما كان يشرع في حملة كان يدعوهم إليه ، فيوزع عليهم النقود والملابس القطنية وغيرها ويرجوهم أن يدعوا لحملة بالنجاح . تلك كانت صفاته ، صفات المؤمن الحق ، الذي يرضى الله بكل عمل يقوم به ، ويطلب التوفيق منه ، وستبقى تلك الصفات ناصعة البياض مهما حاول الظالمون تشويهها .

ما أشبه الليلة بالبارحة

إن وحشية الروس هي من أحداث التاريخ التي لا تنسى ، وإنّ المأساة الحالية للبوسنة والهرسك هي كمأساة القفقاس عميقة الجذور في التاريخ ؛ فالصرب

سلاف الجنوب (يوغوسلاف) ليسوا بأقل وحشية من أقربائهم الروس ؛ سلاف الشمال، إنهم أرومة واحدة . وفي مواجهتهم ، عرفت مناطق القفقاس ويلات الحروب كافة ؛ من إحراق القرى بمن فيها ، إلى إهلاك الناس بالسيف والرصاص وهم في صلاتهم . فانظر إلى الأمعاء وهي تلتصق بالجدران والأغصان ، وإلى الجماجم تتدحرج على السفوح والصخور ، وإلى السنايك ما تفتت تهز الأرض ، وإلى بطون وهي تبقر عن الأجنة ، وإلى الأعراض المباحة؛ أعمال كلها سحق لإنسانية الإنسان، وإذلال يخجل منه الذل نفسه !

وثار أهل القفقاس مرات ؛ وقام فيهم الإمام منصور من الشيشان سنة ١٧٨٣ ، وكان أول من بدأ حركة المريدين الصوفية المقاتلة ؛ إذ وحد قوى القبائل ، وقاوم بشراسة المحارب الجريح ، فطرد الروس من معظم الأقاليم ، وأوقعهم في كمائن على مهاوي الوديان . بعدها أسر الروس الإمام منصور ؛ ومع ذلك تابعت مقاومة أهل القفقاس مسيرتها بزعامة غازي محمد ملا ثم الإمام حمزات ، وكانت شعارات المريدين شعارات الحرب:

- من لا يحارب الروس فمصيره جهنم .

- اللجنة تحت ظلال السيوف .

- أمة محمد لا تعيش تحت ظل الكفرة .

فأقام الروس مقابلهما حركة الزباروز التي جعلت شعارها حربا أشد وأكثر عمية:

يجب قتل كل قفقاسي لا يقر بذلك ، وهذه أولى مهمات الزباروزي ! وصار الصراع في المنطقة كلها صراعا دينيا سافرا .

وإذا شغلت روسيا عن حروب القفقاس في مطلع القرن التاسع عشر بسبب حروب نابليون وهدأت المنطقة بعض الهدوء ، فقد عاد الشر حين أضحي نابليون منفيًا في سانت هيلانة ! وعاد الروس إلى عدوانهم على القفقاس واحتلوا بالقوة أقساما منها سنة ١٨٢٢ ، ثم جاءت معاهدة أدنة سنة ١٨٢٩ التي أنهت حرب الأفلاق والبغدان في رومانيا ؛ فكان من بنودها تسليم شمال

القفقاس للروس !! ولست أدري ما العلاقة بين هزيمة في غرب البحر الأسود وبين تسليم المناطق الشرقية المطلة عليه ؛ إلا إذا أنزلت في الحساب المطامع الروسية . لم يكن هذا يعني سحب الجيش العثماني من المنطقة - أبدا - فلم يكن هناك جيش ، ولكنها منطقة إسلامية تركها العثمانيون لمصيرها - استرضاء للروس ، وتحركت البلاد لحماية هذا المصير . ظهر فيها الشيخ شامل يقود المقاومة وفي لبها حركة المريدن .

كان أهل قفقاسيا يعدون في التقدير أربعة ملايين ، وحشدت روسيا (١٢٥) ألف جندي لخنقهم في قراهم الجبلية ، وهرعوا يناشدون الدولة العثمانية المعونة ، وقالوا: إن الدم الشركسي يملأ أوردة السلطان ؛ فأمره وزوجته شركسيستان ، ودماء الحاشية والوزراء والقادة وكثير من رجال الدولة .

وفيما بين سنتي ١٥٦٠ و ١٩٠٨ كان الشراكسة عصب الجيش العثماني ، لـ ٤٠٠ من رجالهم رتبة الباشوية فيه ، وكان ١٢ منهم من الصدور العظم ، وما يقارب مائة وخمسين ضابطا برتبة مارشال ، عدا المئات بعد المئات من الوزراء والقادة والولاة والشعراء . وعبثا كانت المناشدة والاستنجد ، فما من شيء يمكنه أن يحرك العملاق الخدر القابع تحت قباب طوبقبو سراي ، أو ضوالة بعجة !! كان يفضل ألف مرة أن يسمع هذا الصوت الضئيل البعيد من وراء البحر الأسود عن أن يسمع هدير المدافع الروسية قرب البسفور والدردنيل ! وفث في عضد الشيخ شامل أن بعض أهل القفقاس من القبرطاي تقاعسوا عن نصرته ، وهددهم بأنه سوف ينقض عليهم كالغيوم السوداء التي تقدح شرراً وصواعق فتاكة وأن الدم سيسيل على جوانب طريقه إليهم ، وسوف يتبعه الهلاك والخوف ، وأنه حين يعجز الكلام تبدأ القوة .. ولكن تهديده ذهب أدراج الرياح بل إنه بالعكس خسر حملته عليهم . كان شامل يحاول لم شمل أهل القفقاس كلهم ، وأرسل سنة ١٨٤٨ قائدين من عنده: محمد أمين وسليمان ، يمثلانه لدى بعض القبائل الشركسية الكبيرة .

الشركس ومصيرهم الغامض

لم يكن هناك تكافؤ بين رقعة صغيرة من الأرض وقبضة أقوام قليلة، وبين روسيا - في اتساعها وكثرة مواردها وجيشها الذي صار جيشاً حديثاً يزيد على المليون ونصف المليون ؛ فهو أكثر عدداً من مقاومة أهل القفقاس كلها .

وبدأت المأساة الحقيقية لأهل القفقاس بعد حرب القرم سنة ١٨٥٦ التي غرق فيها شعب القوقاز حتى الأذقان ؛ فقد حاربوا مع الحلفاء العثمانيين والإنجليز والفرنسيين ؛ قاوموا ودمروا ، وحسبوا فرصة العمر ، وحين توقفت الحرب ترقبوا الجزاء الأوفى ؛ إلا أن أحداً لم يذكرهم بكلمة في مؤتمر باريس وحتى الدولة العثمانية نفسها .

وأمام ٢٨٠ ألف جندي حشدتهم روسيا لسحق المقاومة هناك لم يجد المريدون إلا الاستسلام (أيلول سنة ١٨٥٩) ، ثم تبعه محمد أمين فاستسلم بدوره. وانقلب الروس وحوشاً في جلود إنسانية ، لم تكن عملياتهم بقصد إخماد الثورة ، ولكنها كانت عمليات إبادة منظمة ، فهذا هو الشعب لا مكان له في روسيا ؛ فلماذا أن يسحق ، ولماذا أن يهاجر . كان هذا مبدء الجنرال ميشيل كراندوك الحاكم العسكري العام للمنطقة . الحقول المحروقة ، ديب المشردين على الثلوج ، تسلل الهارين في الغابات ، أقيية التعذيب البربري ، التمثيل بالجثث ، هدم المساجد ، سحل الشيوخ ، الأكواخ أصبحت كالهياكل العظمية الباكية . كل ذلك كان بعض العمل اليومي للجندي الروسي على مدى سبع سنوات ونيف . حتى أعلن الجنرال كراندوك « نهاية حرب القفقاس » سنة ١٨٦٤ ، وصارت المنطقة - في مفهومه - روسية !! وساد فيها السلم ؛ سلم القبور !! ولكن بعد مائة سنة من القتال .

حرب المائة سنة القفقاسية هذه لم يتحدث عنها أحد في التاريخ - بوصفها أحد فصوله المخجلة المرعبة - انتهت بانهيار المقاومة في صمت ، وإعلان نيتها في صمت أكبر. والناس يذكرون الفظائع الاستعمارية للفرنسيين والإنجليز ، ولكن من ذا الذي يذكر الاستعمار الروسي وفضائعه في القرم وشمال القفقاس والتركستان ؟ التي كانت أكثر مرارة وأشد نكالا !

الروس لم يكونوا يريدون الأرض ، وكذلك الصرب اليوم - في البوسنة والهرسك - أراضيهم واسعة وخالية ، ولكنهم لا يريدون بقاء الملة الإسلامية عليها . ولذلك أمر الجنرال الروسي كارتسوف قاداته بتسفير أهل القفقاس « إلى أبعد ما يستطيعون » ! وكان هذا الأبعد يعني عنده أقاصي الأرض العثمانية ! .. وكان هذا فقط هو الجزء الأوفى الذي ناله أهل القفقاس من الحلفاء . وأفهم الروس أهل القفقاس أن عليهم أن يرحلوا طوعاً أو كرها . عليهم الهجرة إلى البلاد العثمانية أو إلى غيابة المجهول ! لا فرق . ودبت صيحة الرحيل في البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، كأنها صرخة العويل ، وبدأ الزحف باتجاه الغرب نحو شواطئ البحر الأسود - الذي ازداد على سواده سواداً في العيون - وتساءل شركسي قبل أن يخوض المياه إلى مركب الهجرة: ألهذا سموه بالبحر الأسود؟...

أسمون هذه صليبية ؟ سموها إذا شئت ، ولكنها لن تكون آخر الصليبيات . مليون إنسان مروا بهذه الدروب الوعرة يجرون الأقدام والعربات والأطفال والعجزة . موانئ أنابة ، توابسة ، سوجي أولر ، باطوم - كانت تقذفهم إلى الماء في شتى أنواع المراكب ، وموانئ طرازون ، سمسون ، سينوب إسطنبول ، فارنا ، بوغاز ، كوستنجة - تتلقاهم قادمين ثقلاء !

كان هذا أول الأمر ، ولمدة سنوات .. ثم ، وبعد سنة ١٨٦٦ اكتفوا بدفعهم عن طريق البر ، عبر الأودية والثلوج ومجاري السيول والأنهر والصخور المسنونة والأحذية الممزقة والمخيمات المرتجلة والأمطار والوحل ؛ وهل طرق أرمنية وجبال آارات بالطرق التي يسهل عبورها ؟ كانوا قرابة المليون و (٤٠٠) ألف يزحفون ، وصل منهم مليون ومائة ألف فقط ، وسقط الباقيون على الدروب . أنقول وصلوا ؟ الواقع أنهم سيقوا سوقاً يزرعون الجثث - المعروقة حتى العظم - حيث مروا . ولقد تمنى معظمهم العودة ليموتوا على ترابهم الوطني ، ولكن كان الطريق مفتوحاً أمامهم فقط ، وباتجاه واحد ، وكل الطرق الأخرى مغلقة . النظرة إلى وراء محرمة ! واليوم: تقدم الدول الأمريكية والأوروبية الحافلات والمعونات المالية ، لا ليتمكن أهل البوسنة والهرسك من الدفاع المجدي ، ولكن

لنقل أهل المدن التي يحتلها الصرب إلى المناطق النائية في المجر وإيطاليا وفرنسا والنمسا واليونان . بهدف التسليم للصرب بالاحتلال . قبل قرن ؛ لم يكونوا بهذا الكرم ، تركوا لأقدام الشركس أن تهتدي على الطرق لعلها تصل مناطق الأمان ... لماذا ؟ ليجبني من عنده الجواب ! أسكن العثمانيون بعض أهل القفقاس على طول الحدود المتاخمة لروسيا ليكونوا في وجهها عند الحرب ، فكأنهم نقلوا من جبهة قتال إلى أخرى ؛ والعدو هو العدو ! وأسكنوا بعضهم الآخر على الشريط الفاصل بين القرى التركية والبلغارية ؛ لكي لا يجد البلغار سواهم إن هموا بالقتال ، وأنزلوا بعضهم حول إسطنبول ؛ وعلى مداخلها والطرق المؤدية إليها ليكونوا درع الحماية ضد الأخطار . أما المهاجرون عبر البر؛ فوطنوا بعضهم في القرى والأماكن ذات الأغلبية المسيحية ، مثل: مالاذكرد في قلب أرمينية ، وجبال ساسون ، لا ليحققوا التوازن بين السكان فقط ، ولكن ليهددوا بعضهم ببعض ، لا يهمهم أيهم المقتول . ورسوموا بالشركس خطا من السكان يفصل ما بين الأكراد والأرمن من جهة ، وبين الأتراك في الأناضول من جهة أخرى ، ابتداءً من مدينة سينوب وسمسون حتى أنطاكية والإسكندرونة، وأرسلوا قسما إلى قبرص ورودس وإلى لبنان في البحر ، وحين احتجت هذه البقاع ورفضت استرضائها العثمانيون بإحراق سفن اللاجئين بمن فيها! ألم تفرق سفينتان محملتان باللاجئين أمام الأعين على شواطئ لارنقة ، والناس ينظرون النيران وهي تحرق الركاب ؟

مصير أهالي كريت المسلمين كان أفضل - فيما بعد - سنة ١٨٩٩ ، اختاروا الهجرة إلى «شام شريف» و«دمشق» ، لأنها في اعتقادهم لا يدخلها الكفار ، وفي دمشق تعرفون الحي الذي يدعى المهاجرين ؛ إن اسمه الحقيقي حي المهاجرين الكريتيين . أنزلوا هناك في بقعة جرداء على سفح قاسيون ، وفي تلك الفترة من أواخر القرن الماضي ومطلع هذا القرن كانت ألمانيا قد أخذت جانب العثمانيين (كيدا بالإنجليز) ووقفت بجانب هؤلاء المهاجرين تدعمهم . وقبل ذلك - أي قبل عهد بسمارك - لم تكن ألمانيا معروفة « كقوة أوروبية » موحدة ، ولم يكن لها أطماع استعمارية تطلب فيها مكانا تحت الشمس كما صارت فيما بعد . وكان للهلال الخصيب نصيب من هجرة الشركس ؛ ففي

العراق مد العثمانيون خط سكتاهم من ماردين إلى الحلة وكربلاء ليوقفوا ضد تحرك الأكراد والشيعة !! وفي بلاد الشام ، أسكنوهم على امتداد خط المدن الداخلية من مبنج إلى حلب حتى جنوب عمان والكرك والطفيلة - بما في ذلك الجولان ، لكي يشقوا الجبهة العربية المتحركة ، وليحموا طريق سكة حديد الحجاز. وفي منطقة أخنه - وكانت تعد من الشام - توزع أهل القفقاس على حوض النهرين سيحان وجيحان (يشيل إيرماق) ، و(فيزيل إيرماق) لعلهم يصلحون الأراضي هناك ؛ فالمنطقة موبوءة بالملاريا المهلكة ، فأنزلوا في مرسين ٧٤ ألفا لم يبق منهم سوى (٤) آلاف !!

واستغلت روسيا حربها مع العثمانيين في البلقان سنة ١٨٧٧ ثورة الحاج علي بك بالشركس لتواصل عمليات التدمير الشامل للمنطقة ويساق عشرات الألوف من أبنائها الباقين إلى داخل روسيا والمناطق الجرداء فيها ولتمنع العثمانيين من ترحيل ١٥٠ ألف مهاجر ، وسبق هؤلاء من جديد إلى الأناضول وإلى بلاد الشام ، وكان نصيب حلب ودمشق منهم ١٥ ألف أسرة ، ونصيب أخنه خمسة آلاف ؟ وكان الترحيل الثاني أقسى من الأول وأشد مرارة^(١) .

آخر الإحصائيات عن المسلمين في الاتحاد السوفيتي سابقا

بغية الفائدة ، ولزيد من المعلومات عن المسلمين في الاتحاد السوفيتي - سابقا - فإنني قد أوردت آخر الإحصاءات التي تتعلق بمساحة الجمهوريات المستقلة (لعام ١٩٩١) ، والكثافة السكانية لها (لعام ١٩٩١) ، وتوزيع سكان القوميات في جمهورية الشيشان - أنغوش (١٩٨٩) ، ومجمل السكان للقوميات الإسلامية في أنحاء الاتحاد السوفيتي - سابقا - (١٩٨٩) ، إلى غير ذلك من الإحصاءات التي رأيت أنها تعود بالفائدة ؛ إذ إنني قد رأيت أن الإحصاءات التي نشرت في العدد الأول من مجلة الحكمة - في مقال سيد عبد المجيد بكر - تعود لسنة ١٩٧٩ ، لذلك آثرت أن تنشر لكي يطلع عليها القارئ المسلم .

(١) بتصرف من مقال عن الشركس للدكتور شاكّر مصطفى المنشور في مجلة العربي العدد ٤١٧ سنة ١٩٩٣ م .

جدول رقم (١)
الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي

الجمهورية	العاصمة	الموقع	القارة	التبعية
١. إبخازيا	سوخومي	جنوب القوقاز	آسيا	جورجيا
٢. أديجاريا	باطومي	جنوب القوقاز	آسيا	جورجيا
٣. أودمرت	أجيفسك	غرب الأورال	أوروبا	روسيا الاتحادية
٤. شمال أوسيتيا	فلادي قفقاس	شمال القوقاز	أوروبا	روسيا الاتحادية
٥. بشكيريا	أوفا	غرب الأورال	أوروبا	روسيا الاتحادية
٦. بوريات	أولان أودي	بحيرة البيكال	آسيا	روسيا الاتحادية
٧. داغستان	مخاشكلا	شمال القوقاز	أوروبا	روسيا الاتحادية
٨. ياقوتيا	ياقوت	سيبيريا	آسيا	روسيا الاتحادية
٩. كالموق	إليستا	شمال غرب قزوين	أوروبا	روسيا الاتحادية
١٠. كاريليا	بتروزافودسك	شمال بطرسبرغ	أوروبا	روسيا الاتحادية
١١. كومي	أوختا	غرب الأورال	أوروبا	روسيا الاتحادية
١٢. ماري	يشكار اولا	شمال قازان	أوروبا	روسيا الاتحادية
١٣. موردفينيا	سرانسك	قرب موسكو	أوروبا	روسيا الاتحادية
١٤. نخشفان	نخشفان	جنوب القوقاز	آسيا	أذربيجان
١٥. قباردين-بلقار	نالشك	شمال القوقاز	أوروبا	روسيا الاتحادية
١٦. قرة قلبي	نركوس	آسيا الوسطى	آسيا	أوزبكستان
١٧. شيشان-انجوش	غروزني	شمال القوقاز	أوروبا	روسيا الاتحادية
١٨. شوفاش	شسيوكساري	غرب الفولجا	أوروبا	روسيا الاتحادية
١٩. توبا	قيزيل	جنوب سيبيريا	آسيا	روسيا الاتحادية
٢٠. تاتارستان	قازان	الفولجا	أوروبا	روسيا الاتحادية

(١) المصدر : الموسوعة البريطانية، عدة مجلدات ، ١٩٧٦ م .

جدول رقم (٢)
الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي

المساحة			الجمهورية
المرتبة	%	١٠٠٠ كم ^٢	
١٧	٠,١٨	٩	١. إبخازيا
٢٠	٠,٠٦	٣	٢. أديجاريا
١١	٠,٨٦	٤٢	٣. أودمرت
١٨	٠,١٦	٨	٤. شمال أوسيتيا
٧	٢,٩٥	١٤٤	٥. بشكيريا
٣	٧,١٩	٣٥١	٦. بوريات
١٠	١,٠٢	٥٠	٧. داغستان
١	٦٣,٥٥	٣١٠٣	٨. ياقوتيا
٨	١,٥٦	٧٦	٩. كالوق
٤	٣,٥٢	١٧٢	١٠. كاريليا
٢	٨,٥٣	٤١٦	١١. كومي
١٣	٠,٤٧	٢٣	١٢. ماري
١٢	٠,٥٣	٢٦	١٣. موردينيا
١٩	٠,١٢	٦	١٤. نخشغان
١٦	٠,٢٧	١٣	١٥. قبادين-بلقار
٦	٣,٣٨	١٦٥	١٦. قره قلوب
١٤	٠,٣٩	١٩	١٧. شيشان-انجوش
١٥	٠,٣٧	١٨	١٨. شوفاش
٥	٣,٥٠	١٧١	١٩. توفا
٩	١,٣٩	٦٨	٢٠. تارستان
-	١٠٠,٠٠	٤٨٨٣	المجموع

المصدر: IMF, "A Study Of Soviet Economy." Vol. 1. 1991. page 209.

جدول رقم (٣) مساحة الجمهوريات والأقاليم الإسلامية			
الجمهورية / الإقليم	المساحة		الكثافة السكانية ١٩٩٠
	%	١٠٠٠ كم ^٢	شخص / كم ^٢
الجمهوريات المستقلة	٨٧,٨٤	٤٠٨١,٠	-
- أوزبكستان ^(١)	٩,٦٣	٤٤٧,٤	٤٥,٤
- أذربيجان ^(٢)	١,٨٦	٨٦,٦	٨٢,٣
- طاجيكستان ^(٣)	٣,٠٨	١٤٣,١	٣٦,٧
- كازاخستان	٥٨,٤٩	٢٧١٧,٣	٦,١
- كيرغيزستان	٤,٢٧	١٩٨,٥	٢٢,٠
- تركمانستان	١٠,٥١	٤٨٨,١	٧,٤
الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي	١٠,٢٤	٤٧٥,٧	-
- أبخازيا (جورجيا)	٠,١٩	٨,٦	٦٢,٥
- أديغيا (روسيا)	٠,٠٦	٣,٠	١٣٠,٨
- بشكيريا (روسيا)	٣,٠٩	١٤٣,٦	٢٧,٦
- داغستان (روسيا)	١,٠٨	٥٠,٣	٣٦,٢
- ناخشفان (أذربيجان)	٠,١٢	٥,٥	٥٤,٦
- قباددين - بلقار (روسيا)	٠,٢٧	١٢,٥	٦١,٥
- قره قلوب (أوزبكستان)	٣,٥٥	١٦٤,٩	٧,٥
- شيشان - أنغوش (روسيا)	٠,٤٢	١٩,٣	٦٦,٨
- تاتارستان (روسيا)	١,٤٦	٦٨,٠	٥٣,٨
الأقاليم ذات الحكم الذاتي	١,٩٢	٨٩,٧	-
- أديغيا (روسيا)	٠,١٦	٧,٦	٥٧,٣
- جورنوباداخشان (طاجيكستان)	١,٣٧	٦٤,٠	٢,٦
- ناجورنو-قراباخ (أذربيجان)	٠,٠٩	٤,٠	٤٣,٧
- قراشاي-شركس (روسيا)	٠,٣٠	١٤,١	٢٩,٩
المجموع	١٠٠,٠٠	٤٦٤٦,٤	-

(١) المصدر : Khadzhiev, S "Muslim Science and Technology Human Resources in the Soviet Union," Islamic Academy of Sciences, amman, 1991.

(٢) تتضمن مساحة قره قلوب .

(٣) تتضمن مساحة ناخشفان وناجورنو - قراباخ.

(٤) تتضمن مساحة جورنوباداخشان.

جدول رقم (٤) عدد سكان الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي عام ١٩٨٩م		
السكان		الجمهورية
%	ألف نسمة	
٨٩,٩٠	٢١٥٧٤	١. في روسيا الاتحادية
٦,٧٥	١٦١٩	- أودمورت
٢,٦٦	٦٣٨	- شمال أوسيتيا
١٦,٤٥	٣٩٤٣	- بشكيريا
٤,٣٧	١٠٤٩	- بوريات
٧,٥١	١٨٠٢	- داغستان
٤,٥٨	١٠٩٩	- ياقوتيا
١,٣٥	٣٢٥	- كالموق
٣,٣٢	٧٩٦	- كاريليا
٥,٢٧	١٢٦٥	- كومي
٣,١٤	٧٥٤	- ماري
٤,٠٢	٩٦٤	- موردفينا
٣,١٤	٧٥٤	- قباردين-بلقار
٥,٢٩	١٢٧٠	- شيشان-انغوش
٥,٥٩	١٣٤٠	- شوفاش
١,٣١	٣١٤	- توفاه
١٥,١٩	٣٦٤٢	- تاتارستان
٥,٠٥	١٢١٢	٢. في أوزبكستان
٥,٠٥	١٢١٢	- قره قلق
١,٢٣	٢٩٤	٣. في أذربيجان
١,٢٣	٢٩٤	- ناخشفان
٣,٨٢	٩١٧	٤. في جورجيا
٢,١٩	٥٢٥	- أبخازيا
١,٦٣	٣٩٢	- أديجاريا
١٠٠,٠٠	٢٣٩٩٧	المجموع

(١) المصدر: IMF, "A Study Of Soviet Economy." Vol. 1. 1990.

(٢) المصدر: Khadzhiyev, S "Muslim Science and Technology Human Resources in the Soviet Union," Islamic Academy of Sciences, 1991.

٤ السكان في ١/١/١٩٩٠م من المصدر رقم (١). والباقي في عام ١٩٨٩م من المصدر رقم (٢).

جدول رقم (٥) توزيع سكان القوميات في جمهورية شيشان - أنغوش لعام ١٩٨٩م		
عدد السكان		القومية
%	ألف نسمة	
٧٠,٧٠	٨٩٨,٢١٢	١. الشعوب الأصلية
٥٧,٨٢	٧٣٤,٥٠١	- شيشان
١٢,٨٨	١٦٣,٧١١	- إنجوش
٣,٤٣	٤٣,٥٤٤	٢. شعوب قوقازية أخرى
١,١٧	١٤,٨٢٤	- أرمن
٠,٧٨	٩,٨٥٣	- قومق
٠,٥٤	٦,٨٨٤	- ناغواي
٠,٤٩	٦,٢٧٦	- أفار
٠,١٤	١,٨٢١	- أوسيت
٠,١٤	١,٧٤٣	- دارجين
٠,٠٩	١,١٠٢	- لأك
٠,٠٨	١,٠٤١	- جورجيين
٢٤,٣٢	٣٠٨,٩٨٥	٣. شعوب سلافية
٢٣,١٣	٢٩٣,٧٧١	- روس
٠,٩٩	١٢,٦٣٧	- أوكران
٠,٢٠	٢,٥٧٧	- بلاروس
١,٥٥	١٩,٦٩	٤. شعوب أخرى
٠,٤٠	٥,١٠٢	- تثار
١,١٥	١٤,٥٨٦	- أخرى
١٠٠,٠٠	١٢٧٠,٤٢٩	المجموع

Henze, P., B., "Demography of the Caucasus, " in Special North Caucasus (١)
Issue, edited by M., Broxup, Pergamon Press, u.k., 1991.

جدول رقم (٦) مجممل السكان للقوميات الإسلامية في كل أنحاء الاتحاد السوفيتي سابقا ، ١٩٨٩م			
النسبة من المجموع	المرتبة	الف نسمة	القومية
٣٠,٣٧٧	١	١٦٦٩٧,٨٢٥	أوزبك
١٤,٨٠٢	٢	٨١٣٥,٨١٨	كزاخ
١٢,٣١٨	٣	٦٧٧٠,٤٠٣	أذري
١٢,٠٩٦	٤	٦٦٤٨,٧٦٠	تتار
٧,٦٦٩	٥	٤٢١٥,٣٧٢	طاجيك
٤,٩٦٥	٦	٢٧٢٨,٩٦٥	تركممان
٤,٦٠١	٧	٢٥٢٨,٩٤٦	كبيرغيز
٢,٦٣٦	٨	١٤٤٩,١٥٧	بشكير
١,٧٤١	٩	٩٥٦,٨٧٩	شيشان
١,٠٩٣	١٠	٦٠٠,٩٨٠	أفار
٠,٨٤٨	١١	٤٦٦,٠٠٦	لزجي
٠,٧٧١	١٢	٤٢٣,٥٢٠	قرة قلبق
٠,٧١٨	١٣	٣٩٤,٦٩١	قباردين
٠,٦٦٤	١٤	٣٦٥,٠٣٨	دارجين
٠,٥١٣	١٥	٢٨١,٩٣٣	قومق
٠,٤٩٤	١٦	٢٧١,٧١٥	تتار القرم
٠,٤٧٨	١٧	٢٦٢,٦٤٣	أغور
٠,٤٣٢	١٨	٢٣٧,٤٣٨	أنغوش
٠,٣٧٨	١٩	٢٠٧,٥١٢	أتراك
٠,٣٠٠	٢٠	١٦٤,٨٥٩	رتول، تساخور، أورغول... الخ
٠,٢٨٤	٢١	١٥٦,١٤٠	قراشاي
٠,٢٧٨	٢٢	١٥٢,٧١٧	أكراد
٠,٢٢٧	٢٣	١٢٤,٨٢٦	أديغة
٠,٢١٥	٢٤	١١٨,٠٧٤	لاك
٠,١٩٢	٢٥	١٠٥,٣٠٨	أبخاز
٠,١٧٧	٢٦	٩٧,٥٣١	تياراسان
٠,١٦٢	٢٧	٨٨,٧٧١	بلقار
٠,١٣٧	٢٨	٧٥,١٨١	ناغاواي
٠,١٢٦	٢٩	٦٩,٣٢٣	دنجان
٠,٠٩٥	٣٠	٥٢,٣٦٣	شركس
٠,٠٧٣	٣١	٤٠,١٧٦	فرس
٠,٠٦١	٣٢	٣٣,٦١٣	أياظة
٠,٠٥٢	٣٣	٢٨,٧٩٦	بلوج
٠,٠١٤	٣٤	٧,٧٤٧	عرب
٠,٠١٢	٣٥	٦,٦٢٥	أفغان
١٠٠,٠٠	-	٥٤٩٦٥,٦٥١	المجموع

المصدر : Khadzhiyev, S "Muslim Science and Techology Humman Resources :
in the Sovite Union," Islamic Academy of Sciences, amman, 1991.

المرتبة من حيث عدد السكان للقوميات الإسلامية .

جدول رقم (٧) السكان الروس في الجمهوريات ذات الاستقلال الذاتي والأقاليم في القوقاز لعام ١٩٨٩ م					
الجمهورية الأقليم		مجممل السكان		السكان الأصليون	
ألف نسمة		ألف نسمة		ألف نسمة	
%		%		%	
١. الجمهوريات					
- داغستان					
١٨٠٢, ١٨٨	١٤٤٤, ٤٣٩	٨٠, ١٦	١٦٥, ٩٤٠	٩, ٢٠	
- شيشان - انفوش					
١٢٧٠, ٤٢٩	٨٩٨, ٢١٢	٧٠, ٧٠	٢٩٣, ٧٧١	٢٣, ١٣	
- قبادين-بلقار					
٧٥٣, ٥٣١	٤٣٣, ٨٨٦	٥٧, ٥٨	٢٤٠, ٧٢١	٣١, ٩٥	
- أبخازيا					
٥٢٤, ١٦١	٩٠, ٧١٣	١٧, ٣١	٧٤, ٤١٦	١٤, ٢٠	
- أديغيا					
٣٩٢, ٤٣٢	٣٢٤, ٨٠٦	٨٢, ٧٧	٣٠, ٠٤٢	٧, ٦٦	
- ناخشان					
٢٩٣, ٨٧٥	٢٨١, ٨٠٧	٩٥, ٨٩	٣, ٧٨٢	١, ٢٩	
المجموع (١)					
٥٠٣٦, ٦١٦	٣٤٧٣, ٨٦٤	٦٨, ٩٧	٨٠٨, ٦٧٢	١٦, ٠٦	
٢. الأقاليم					
- أديغة					
٤٣٢, ٠٤٦	٩٥, ٤٣٩	٢٢, ٠٩	٢٩٣, ٦٤٠	٦٧, ٩٧	
- قراشاي-شركس					
٤١٤, ٩٧٠	١٦٨, ٩٧٦	٤٠, ٧٣	١٧٥, ٩٢٣	٤٢, ٣٩	
- ناجورنو-قراياخ					
١٨٩, ٠٢٩	٤٠, ٦٣٢	٢١, ٥٠	١, ٩٢٢	١, ٠٢	
- أوسيتيا الجنوبية					
٩٨, ٥٢٧	٦٥, ١٩٥	٦٦, ١٧	٢, ١٢٨	٢, ١٦	
المجموع (٢)					
١١٣٤, ٥٧٢	٣٧٠, ٢٤٢	٣٢, ٦٣	٤٧٢, ٦١٣	٤١, ٧٤	

(١) المصدر: مستخرج من الجداول السابقة .
 ○ النسبة من مجمل السكان في الجمهورية / الإقليم.

ملاحظات

- ١ - هذا المقال ليس لكاتبه حظ إلا الجمع والترتيب ، ذكرنا ذلك للأمانة العلمية .
- ٢ - من المؤسف أن مجلة العربي في عددها (٣٤٢) سنة (١٩٨٧) في استطلاع مصور ذكرت أقوالا - نقلا عن وزراء الشيشان في العهد الشيوعي - تشعر بأن هذا الشعب لم يضطهد .
- ٣ - هناك بعض الكتابات السيئة عن هذه المنطقة ؛ فهي بعيدة عن الروح الإسلامية ، وتحاول تبرير أفعال الروس الإجرامية .
- ٤ - من المؤسف أيضا أن الكتاب الأجانب غير المسلمين هم الذين أجادوا الكتابة في تاريخ هذه الأمة الإسلامية وأحوالها ، في حين حظيت بالإهمال من قبل كتاب المسلمين - منذ العهد العثماني حتى وقتنا هذا .
- ٥ - هناك جهود متميزة للدكتور سلطان طه مراد ، والمترجم صادق إبراهيم علي، وإحسان حقي .
- ٦ - المقال الذي نشر في مجلة الحكمة - العدد الأول - بقلم سيد عبد المجيد بكر لم يكن محيطا بأحوال المسلمين فيما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي ؛ إذ نشرت فيه إحصائيات عن أحوال المسلمين لسنة (١٩٧٩) مع توافر إحصائيات التسعينات في المراجع العربية والأجنبية .

المصادر:

- ١ - المسلمون في المعسكر الشيوعي : الدكتور علي المنتصر الكتاني ، رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة ، ١٣٩٣هـ .
- ٢ - خطاب ممثل مسلمي القفقاس سعيد شامل: ألقى في المؤتمر الإسلامي العام المنعقد بدمشق في (١٧ - ٢١) من ذي القعدة ١٣٧٥هـ .
- ٣ - المسلمون تحت السيطرة الشيوعية: محمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٢هـ .

- ٤ - التاريخ الإسلامي: ج ٨، محمود شاكر ، المكتب الإسلامي ، ١٤٠٧هـ .
- ٥ - صفحات من تاريخ الإسلام والمسلمين في بلاد السوفيات: الشيخ طه الولي، دار الفكر الجديد ، ط ١ .
- ٦ - المسلمون في الاتحاد السوفيتي عبر التاريخ: د. محمد علي البار، ج ١ - ٢، دار الشروق ، جدة، ط ١ ، ١٤٠٣هـ .
- ٧ - تاريخ القوقاز مت جوناثقة: يوسف عزت، تعريب عبد الحميد غالب دار صوت النارتن للنشر، ١٣٣٠هـ .
- ٨ - قتلة الأمم « النفي السوفياتي للأمم أثناء الحرب العالمية الثانية »: تأليف دوبرت كونكوست ، ترجمة صادق إبراهيم عودة، ط ١ ، عمان ١٤٠٩هـ .
- ٩ - الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفيتي (سابقا):
نحة تاريخية - الجمهوريات - اللغات - السكان - الكفاءات العلمية: د .
فخر الدين الداغستاني ، مركز الدراسات الدولية، الجمعية العلمية الملكية
١٤١٣هـ .
- ١٠ - المسلمون في الاتحاد السوفيتي: شانتال لمريه كلججي ، ألكسندرينغسن /
جامعة السوربون . تعريب إحسان حقي ، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٢هـ .
- ١١ - انتشار الإسلام حول بحر قزوين: ج ١، د . حامد غنيم أبو سعيد
القاهرة ، ١٣٩٤هـ .
- ١٢ - احتلال الروس للقفقاس: جون بارلي ، تعريب صادق إبراهيم علي .
- ١٣ - مجلة العربي ، العدد (٣٤٢) مايو ١٩٨٧ ، العدد (٤١٧) ، أغسطس
١٩٩٣ .
- ١٤ - ومصادر أخرى .